
جمعها وترجمها وقدم لها
Bibliotheca Alexandrina



إدريس أفندى فى مصر

مذكرات الفنان والمستشرق الروسى

بريس دافين فى مصر

(١٨٠٧ - ١٨٧٩)

■ المشرف على التحرير : جمال الغيطانى

● العدد ٣٢٣ ●

كتاب اليوم
أسسه
مصطفى أمين وعلي أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة
ابراهيم سعده

العدد ذو الحجة ١٤١١ هـ
٣٢٣ يوليو ١٩٩١ م
تموز

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولى ٩٢٢١٥ ـ محلى ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوى ٢٠ جنيه مصرى

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى والافريقى ٢٠ دولار امريكى او ما يعادله
باقى دول العالم واوربا والامريكتين واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى او ما يعادله

- ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
- ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٦ ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

أسعار كتاب اليوم

المغرب	٢٠	درهم
لبنان	٧٥٠	ليرة
الاردن	٧٥٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٠٠	فلس
السعودية	٧	ريالات
السودان	١٥٠٠	قرش

فى الخارج

إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فلورين
اليونان	١٠٠	روبية
النمسا	٤٠	فرنك
الدنمارك	١٥	دراخمة
السويد	١٥	شلن
الهند	٣٥٠	كرون

تونس	١٢٥٠	مليما	سلطنة عمان	٧٠٠	بيسة	الإمارات	٨	درهم	كندا امريكا	٣٠٠	سنت
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما	غزة	١٠٠	سنت	قطر	٨	ريالات	البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
سوريا	٣٠	ل.س	ج. اليمنية	٢٣	ريال	انجلترا	١٢٥	بنس	نيوزيلندا	٣٥٠	سنتا
الحبشة	٦٠٠	سنت	الصومال نيجيريا	٨٠	بنس	فرنسا	١٠	فرنك	لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
البحرين	٨٥٠	فلس	السنغال	٦٠	فرنك	المانيا	٥	مارك	استراليا	٤٠٠	سنت

الغلاف : للفنان بريس دافين

« القاهرة القديمة ـ قرب باب الخلق ـ القرن ١٩ »

الماكيت : محمد عفت

إلى بهاء طاهر

الذى استحضر بفنه ذاكرة مصر العميقة .
وحدانى وُدُّهُ لنشر هذا الكتاب .

★ ★ ★

* « النشر إحياء الميت كالنشور والإنشار .
وانتشار الورق : إيراق الشجر .
والمنشور الرجل المنتشر الأمر ،
وما كان غير مختوم من كتب السلطان » . الفيروزابادى

چنيف سنة ١٩٩١ من القاهرة سنة ١٩٥٨

أ . ل

■ تمهـــــيد ■

إدريس أفنــدي (١٨٠٧ - ١٨٧٩)

مـؤرخ أهمـله التـاريخ

لا أعرف مؤرخا مصريا ممن عرضوا لحياة مصر في القرن الماضي تحدث عن « إدريس أفندى » أو أشار إليه ، وإدريس أفندى مع ذلك شخصية فذة هامة ، لا للدور الذى أداه في سلك الوظائف الحكومية ، وإن يكن تقلب فيها سبع سنين بين التدريس والهندسة وبين القاهرة ودمياط ، بل لنشاطه الخصب في ميدان التاريخ المصرى ، وما ترك من لوحات ومؤلفات ممتازة تجلو روائع ماضينا ، ومن مذكرات صريحة تصور حياتنا الاجتماعية ، وتلقى الضوء على أسرار الحكم والسياسة التى أثرت في مصير مصر الحديث .

وما زالت أوراق كثيرة مما كتب إدريس أفندى مخطوطة لم تنشر حتى اليوم ، تحفظها دار الكتب الفرنسية بباريس . وهى التى نقدم مختارات منها في الصفحات التالية .

فَمَنْ إدريس أفندى هذا الذى أهمله التاريخ الرسمي ؟

رجل ذكى مثقف يحصل العلم ويذيعه ، دون أن يكل عزمه أو يفتر إزاء ما يلقى من صعاب ، رجل كريم الطبع ، كبير الإباء ، شديد العريكة ، يعرف قدر نفسه ، ويعتد بحريته قبل كل شىء . وهذه كلها صفات أهلته بجدارة لأن يعيش مغموراً ، وإن يموت فقيراً ، وقضت عليه بأن يهمله التاريخ الرسمي . فلو كان يتقن فن التملق والزلفى والمداهنة إلى جانب ما أتقن من فنون ، ولو كان يحسن الطاعة والإغضاء ، ويعرف كيف يخفض جناح اللين للسادة ، إذن لرأى الرضا ، وترقى من رتبة إلى رتبة ، ووصل في ركاب ذلك العهد إلى المنصب العالى ، والثراء العريض ، والمكان العزيز في التاريخ الرسمي .

يعيدنا إدريس افندى إلى ذلك العهد الذى بدأ فى مصر بتولى محمد علي ، واتصل بتعاقب خلفائه من بعده . وقد عاصر إدريس خمسة من أولئك الولاة : محمد علي ، وإبراهيم ، وعباس ، وسعيد ، وإسماعيل ؛ وعرف الأسرة الوالية من قريب معرفة مباشرة . إذ اتخذه إبراهيم مربياً لأولاده أيام محمد علي .

* * *

وحياة « إدريسنا » هذا قصة طريفة لا يعوز راويها أن يلجأ إلى الصنعة ووسائل التشويق لاجتذاب القارىء . فهي قصة تكفي وقائعها إثارة شغفنا واهتمامنا إذا سردت سردا . وهي تجرى على أرض مصر الإفريقية ، ولكنها تجرى أيضاً على أرض أوروبا وآسية . وهي تمتد فى الزمان اثنتين وسبعين سنة منذ أن ولد بطل القصة عام ١٨٠٧ حتى توفي عام ١٨٧٩ .

وقد ولد بطل القصة في فرنسا ، فى إقليم الفّلاندر ، ولم يسمه أبوه « إدريس » ، فقد كان من أسرة انجليزية الأصل هاجرت إلى فرنسا فراراً من جور الملك شارل الثاني ، بل عرف صاحبنا باسم بريس دافين (Prisse d'Avennes) ، وهو تحريف للاسم الانجليزى برايس أوف أيفن (Price of Aven) . وكان أبوه مفتشاً لغابات الأمير تاليران ، لقي الموت عام ١٨١٤ ، إذ تطوع لتمريض جنود نابليون المصابين بالتيفوس ، فقضت عليهً العدوى . ودخل الفتى عام ١٨٢٢ ـ بعد دراساته الأولى ـ مدرسة الفنون والصنائع بشالون ، وتخرج فيها عام ١٨٢٥ بإجازة المهندس المعمارى ، وهو فى التاسعة عشرة من عمره . وأصغى إلى ما هتف في صدره من طموح الشباب وحب المغامرة ، فمضى يحارب في صفوف ثُوار اليونان في العام التالي . ومن هناك أبحر إلى الهند حيث أصبح سكرتيراً لحاكمها العام . ثم نراه بعد ذلك بقليل فى فلسطين .

ويبلغه حديث محمد علي وحاجته إلى الإخصائيين الأوروبيين يستعين بهم لتنظيم الجيش والمدارس وتنفيذ مشروعات الرى والزراعة ، فتصور له آماله وحميته إنه سيجد على ضفاف النيل ـ تلك الأرض البكر التي ينشدها ليؤدى فيها طاقته ، ويدرك ثمرة جهده ، ـ كل ما يصبو إليه من رغد العيش ، وشرف المنصب ، والجاه الذى ينتظر العاملين في عزم وإقدام .

وها هو ذا يلتحق بخدمة « الباشا » عام ١٨٢٩ ، فيعينه مهندساً للري ، ثم أستاذاً للطبوغرافية في مدرسة أركان الحرب بالخانكة ، وفي الوقت نفسه مربياً لأبناء إبراهيم . وإذ ذاك يقدم للوالي « مذكرة في أهم الأعمال التي يمكن تنفيذها في الدلتا » ، ومن بينها حفر ترعة تمتد من الإسكندرية إلى القاهرة ، وإنشاء جسر معلق على النيل بين جزيرة الروضة وحدائق إبراهيم .

هكذا تبدأ القصة بداية سعيدة : فالأيام تبتسم لصاحبنا ، وتعده خير الوعود . ولقد غدا يشق طريقاً ناجحاً موفقاً بفضل ذكائه ، وقريحته الفطنة إلى الحياة العملية ، ومثابرته الشديدة . ولكنه بالرغم من هذا كله – أو لهذا كله – لا يلبث حتى يصطدم هو وعبد الله « بك » ناظر مدرسة الخانكة . وقد روى ابنه تلك الحادثة ، قال :

« ذات صباح – وكان ذلك يوم ٢١ من يولية سنة ١٨٢٩ – أرسل « عبد الله بك » رئيس المعسكر في طلبه وكلفه طبع موسيقى الكتائب نظراً لمعارفه الخاصة ، ولعدم وجود من يقوم بهذا العمل ؛ فرفض بريس محتجاً بأن هذه المهمة لا تدخل في دائرة اختصاصه . فغمره في الحال سيل من الشتائم البذيئة ، وصدر الأمر بأن يكبل بالحديد إلى أن يعدل عن رأيه ويمتثل . ولما ظل رابط الجأش ولم تؤثر فيه جميع تلك التهديدات ، اشتد غضب « البك » ، وأصدر أمراً همجيا بجلده بالكرباج .. وعاد بريس إلى بيته ، فأرسل استقالته إلى نظارة الحربية ، ثم وضع في حزامه خنجراً ومسدسين ، ومضى يحمل بنفسه استقالته إلى « البك » . وإذ دخل عليه ألقاها تحت قدميه قائلا له : إنه بهذه الاستقالة التي أرسل منها نسخة إلى القاهرة قد استرد حريته ، وإنه خليق بأن يرميه بالرصاص في رأسه دون أن يستطيع واحد من حرسه أن يمنعه ، إذا هو حاول – وإن كان ناظراً – أن يعتدي عليه . وشده الناظر فلم يحر جواباً . أما بريس فامتطى حصانه ، وبلغ نظارة الحربية حيث اعتذر إليه المسئولون » .

غير أن تصرفاً من هذا القبيل لم يكن من شأنه في ذلك العهد أن يفتح سبيل التقدم والترقية أمامه ، ولا أن يحقق له ما كان ينشد على ضفاف النيل من رغد المستقبل ، وشرف المنصب ، والجاه الذي يكافيء جهد العاملين في عزم وإقدام . منذ ذلك اليوم ، انخفض نجم بريس في سماء مصر . نقلوه إلى دمياط أستاذا للتحصينات في مدرسة المشاة . ولكن

همته لم تفتر ، بل راح يستطلع شمالي الدلتا ، لا سيما منطقة بحيرة المنزلة ، ووضع « مذكرة في تجفيف بحيرات مصر السفلى وزراعتها » قدمها كبير الرجاء إلى الوالى ، إلا انها لم تجد حظوة لدى جنابه العالى .. ولا نعلم من امر بريس في السنوات التالية إلا ما بذل من نفسه للمرضى والمصابين في وباءى الكوليرا والطاعون اللذين فتكا بمصر عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٤ ، فقد نهكه العناء حتى اشرف به على الموت .

هناك خالط الشعب المريض الجائع البائس ، وفهم نفوس المصريين ، ولمس تحت الأسمال التى القاها عليهم الحاضر الوخم تلك الصفات الكريمة العريقة التى سجلتها حضارتهم من قديم . واقبل عليهم فى شغف ، فتعمق مجتمعهم ، ودرس تفاصيل حياتهم ، واتقن لغتهم . ودعاه الجميع باسمه الذى تحول من « بريس » إلى « إدريس » : « إدريس افندى » .

ودفع إدريس افندى اهتمامه بحضارة هذا الشعب إلى دراسة الهيروغليفية ، وكان شامبليون قد حل رموزها منذ سنوات قليلة . وملأت حياة المصريين حياته ؛ فهو يفكر في ماضيهم كما يفكر فى حاضرهم وفي مستقبلهم . وما باله يظل محدودا بواجب ضيق صغير ؟ إن الإنسانية اعرض من ان يربطها سلك الوظيفة الرسمية . وإنه ليزهد في هندسة الرى الحكومية وتدريس علم عقيم ، فيقدم استقالته عام ١٨٣٦ . ليفرغ إلى ما بات يستغرقه من التاريخ لهذا المجتمع الذى يعيش فيه .

* * *

ها هو ذا فى زيه العربى ينتقل بين الفلاحين من قرية إلى قرية ، ومن الدلتا إلى الصعيد ، ومن الصعيد إلى النوبة . ها هو ذا يقف مبهوراً امام بوابة أبى سنبل الراشحة . وها هو ذا فى عام ١٨٣٨ يستقر في الأقصر ، موجهاً جهوده إلى دراسة منطقة « طيبة » . أو يستقر حقا ؟ إنما حياته فى تلك الأثناء نضال متصل كل يوم ضد عجرفة المدير ، وتسلط موظفى الباشا ، واستشراء عصابات اللصوص . ولكنه يحب العراك والكفاح والعيش فى خطر . عليه إذن ان يحمي نفسه ، ويحمى رحاله . بل ويحمى تلك الآثار العريقة من معمل البارود الذى انشاه الباشا بالكرنك .

ولم يكن بد من أن يلتحم هو والسلطة الغشوم مرة اخرى ، فى مارس ١٨٤١ : فقد قبض ناظر الأقصر على واحد من رجاله بغير وجه حق ،

وامر بضربه بالعصا ، ورفض إطلاق سراحه ، فاحتد « إدريس افندى » ، وضرب الناظر . وهنا تقوم قيامة الناظر التركى وخفره ، ونترك لابن إدريس افندى إتمام رواية الواقعة ، فهو يقول :

« على الرغم من انه كان بمفرده ضدهم جميعاً ، فقد افلح في ان يذود عنه اولئك الذين اخذوا بتلابيبه ، إذ ضربهم في وجوههم بقبضة يده ، ولكنهم تكاثروا عليه بعد ذلك من كل جانب . وحين هوت عليه العصا الاولى أمسك عن استخدام سلاحه . غير أن العِصِيّ تتابعت بلا انقطاع ، فبدد وقعها صوت ضميره المتردد ، واندفع شاهراً خنجره على ذلك التعس الذى ضربه في تلك اللحظة ، فجرحه جرحاً بليغاً ، واصاب اثنين آخرين إصابة أهون . وإذ ذاك هجم عليه الجميع ، وكبلوه ، وامر الناظر بحبسه . وبينما هم يكبلونه ، اتى لنجدته ـ بمجرد ان بلغه الامر ـ فرنسى سائح كان يقيم عنده اياماً ، هو « الكونت دى فرچين » . فطوقوه في الحال ، وسحبوه من لحيته إلى السجن . حيث وصل دامى الجسم ، هو والخدم الثلاثة الذين كانوا في صحبته . ثم قيدوهم جميعاً بالسلاسل » .

وفي قاع ذلك السجن المظلم ، ظل إدريس افندى وضيفه ورجالهما اربعة أيام واربع ليال ، وسط الاوساخ العفنة التى اختلطت بتراب الارض ، لا يبلغهم نور ولا هواء ، بل لا كسرة من خبز ولا جرعة من ماء ، مشاطرين في هذا كله بلاء نحو من عشرين فلاحاً فقيراً ، لم يكن لهم من ذنب إلا فقرهم الذى لم يختاروه وعجزهم عن دفع الضرائب للباشا . ولولا توسط الرسام « نستور لوت » ، معاون شامبليون في دراسة الآثار ، وقد اقبل في مهمة رسمية ، ما افرج عنهم .

ويزعم الاديب الفرنسي ماكسيم دوكان Maxime du Camp الذى زار مصر في ذلك العهد وعرف إدريس افندى ان إدريس افندى قد انكسر في هذه الوقعة فكه وإحدى ذراعيه .

ونحن نشك في صدق رواية ماكسيم دوكان ، فهو شخص مشهور في الادب الفرنسي بنفسية خاصة تنحرف به إلى المبالغة والتهويل وتشويه الحقيقة في سبيل التاثير على القارىء ، ولكن الذى لا شك فيه هو ان إدريس افندى ظل في الاقصر مرفوع الراس يواصل ابحاثه بعزيمته المعهودة التى لا تنثنى ولا تكل .

وقد ادت ابحاثه في تلك الفترة بين سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٣ إلى نتائج يعرف مؤرخو الآثار المصرية اهميتها . فقد يكفيه فضلا انه حفظ بعض آثار « طيبة » العريقة من الفناء . وكيف كان ذلك ؟ ذات يوم ، لسد حاجة طرأت على معمل البارود بالكرنك ، اقبل العمال يقتطعون الأحجار من الأعمدة الضخمة القائمة في جنوب الهيكل الجليل ، أعمدة « حار محب » التي كانت تعرف إذ ذاك باسم « أعمدة حوريس » .

وكان إدريس افندى أول من لاحظ النقوش الممتازة الفريدة المنحوتة عليها من عهد اخناتون ، ووجه إليها بالفعل نظر الرسام نستور لوت .. وهو يكتب (في يناير سنة ١٨٤٠) لعالم الآثار الانجليزى ويلكنسون عما حل بها فيقول :

« كانت الأحجار المستخدمة في ذلك الجزء من العمود ضخمة الحجم ، فلاختصار العمل عمدوا في تكسيرها إلى استعمال البارود . وحين وصلت إلى المكان ، كانوا يتاهبون لإشعال بعض الذبالات . فاستمهلتهم لحظات ريثما ارسم أبا هول منحوتاً على كتلة طولها متران تقريبياً وقد غمرته اشعة « اتون رع » . ولم أكد أتم رسمي حتى تطاير الحجر شظايا ؛ ولكن لحسن الحظ بقي رأس ذلك الفرعون المعبر ـ وإن كان قد تشقق ـ على قدر من السلامة اتاح لي أن أطبعه على عجينة من الورق استعنت بها بعد ذلك في تهذيب رسمي على مهل » .

وقد يكفيه فضلا بين علماء الآثار المصرية أنه كشف في معبد « خونسو » اثنتى عشرة غرفة ، وأنه كشف البردية الهيراطيقية التي تحمل اليوم اسم بردية « بريس دافين » . ولكنه لم يقف اعماله في ذلك الميدان عند هذا الحد . بل واصل ابحاثه في شغف ومثابرة دائماً .

كان الصعيدى العريق رفاعة الطهطاوى على إثر عودته من بعثته في فرنسا ، حيث اقام خمس سنين ايقظ فيه خلالها حنينُه إلى بلده واطلاعه على أوجه الحضارة الجديدة وعياً وطنيا متاججاً مستنيراً ، قد طالب محمد على بحماية آثار مصر القديمة ، فصدق الوالي على امر صاغه رفاعة ينص على منع التصرف في الآثار . غير أن الوالي في حاجة إلى احجار لبناء معامل السكر من ناحية ولتموين معامل البارود من ناحية أخرى ، فيفرض على الفلاحين أن يقدموا له عن كل فدان مزروع قنطاراً من الأحجار ، ولا بأس على فلاحي الصعيد من أن يقتطعوا له الاحجار من

هذه الأعمدة الضخمة والتماثيل الكثيرة التي تملأ منطقتهم ؛ فتلك أحجار مشذبة أصلح للبناء وأقرب منالا من بطون الجبال ! بل كان رجال الإدارة في الحالات العاجلة يسوقون الفلاحين إليها لتكسير ما تحتاج إليه معامل الباشا . ويرتاع لذلك علماء الآثار في أوروبا . فيكتب ويلكنسون في لهفة لإدريس أفندى يسأله « معلومات عن التهديم الذى حدث في الكرنك » ويرجوه أن يبادر ليرسم « إذا لم يكن قد فات الأوان : أساطير الفراعين القدماء التي يقال إنها تكسو الأحجار المستخدمة في هذه المعالم » ، ويهرع ليبسيوس على رأس بعثة بروسية كانت قد اجتثت منذ سنوات روائع النقوش والرسوم من جدران مقبرة سيتي الأول بوادى الملوك ونقلتها إلى برلين ، وهو يهرع هذه المرة لينقل « غرفة الملوك » الشهيرة في الكرنك (من آثار تحوتمس الثالث) ، فيسبقه إدريس أفندى بأيام ، ويبذل أعنف الجهد حتى يفصل أحجارها ، ويحملها إلى باريس حيث يحفظها متحف اللوفر .

* * *

ويعود إدريس أفندى إلى مصر عام ١٨٥٨ ، أى في أثناء ولاية سعيد ، فيجوب البلاد من جديد مسجلا مشاهداته وملاحظاته ، مصوراً المعالم والآثار بالآلة الفوتوغرافية ، أو راسماً إياها بقلمه وألوانه ، أو صانعاً لها قوالب متقنة ، حتى يجتمع له من ذلك كله محصول ثمين من المعلومات الجغرافية والبشرية والتاريخية والفنية واللغوية والاجتماعية ، مادة غزيرة هي التي استمد منها فيما بعد كتبه القيمة عن الآثار المصرية ، وغذّى بها الصحف والمجموعات الكثيرة التي راح ينشرها للتعريف بمصر .

وقد وقف أيامه وجهده على هذه المهمة التي غمرته واستغرقته . عرضت عليه الحكومة الفرنسية منصب السفير في تركيا ، فاعتذر مؤثراً مواصلة منشوراته ومطبوعاته التي لم تكن لتمنحه مثل جاه السفير ومرتبه . وإنها لتضحية تعرفها له مصر اليوم . وقد أصبحت كتبه عن الفن نادرة جدا ، وفي مقدمتها كتاب « الآثار المصرية » (Les Monuments Egypticns) الذى يضم خمسين لوحة من القطع الكبير ، ويعتبر مكملا لكتاب شامبليون الذى ظهر عام ١٨٤٥ بعنوان « آثار مصر والنوبة » Mouments de l'Egypte et de la Nubie. أما « تاريخ الفن المصري » ،

مأخوذاً عن الآثار ، منذ أقدم العصور إلى الحكم الروماني ، Histoire de l'Art Egyptien d'Après les monuments, depuis les temps les plus reculés jusqu' à la domination romaine. فهو « أطلس » رائع يضم في مجلدين مائة وستين لوحة من القطع الكبير . وله أطلس آخر من مائتي لوحة في ثلاثة أجزاء عنوانه « الفن العربي » ، مأخوذاً عن آثار القاهرة منذ القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر .
(l'Art Arabe, d'après les Monuments du Caire depuis VII^{e} siècle jusqu' à la fin du XVII^{e} siècle.)

إن دراسة الآثار المصرية والعربية التي كانت تحبو في ذلك الوقت ، مدينة لهذا العالم الفنان بتقدمها خطوات موفقة إلى الأمام : فرسوم شامبليون وأعوانه كانت رسوماً مجردة ، فاترة ، هندسية ، لا تؤدي إلا الخطوط والأبعاد والأحجام . أما رسوم إدريس أفندي أو بريس دافين فقد بعثت الحياة النابضة الملونة في الماضي السحيق وأضافت إلى صوره المعروفة صوراً مجهولة .

ولم يهتم بالآثار العربية قبل إدريس أفندي أو بريس دافين إلا مهندس معماري من أهل مرسيليا سبقه إلى زيارة مصر ويدعى « باسكال كوست » رسم في دقة موضوعية جافة أيضاً عمارة الفاطميين والأيوبيين والمماليك ، ولكن إدريس أفندي أو بريس دافين نظر من بعده إلى المساجد والزخرفات والأثاث نظرة إنسانية جلتها في مظهرها ذلك الأليف القريب من نفسه .

وأما مقالات إدريس أفندي أو بريس دافين وأبحاثه الكثيرة في الصحف والمجلات والمجموعات الدورية فيضيق هذا المقام عن الإحاطة بها : ففي هذا كله أنفق الرجل حياته . واضطرت زوجته إلى أن تبيع بعض الانجليز جزءاً كبيراً من مخطوطاته وأوراقه ورسومه ومكتبته الثمينة . وهو على فراش الموت لا يدري ماذا يدور من حوله .

ولعل أهم أوراقه مع ذلك هي التي بقيت في فرنسا ، وآلت إلى دار الكتب بباريس ، أوراق يضمها اثنا عشر مجلداً ، وتتصل بدراسة مصر من مختلف النواحي . وقد استوقفتنا بين هذه الأوراق بوجه خاص ثلاثة مجلدات ضخمة ، يبلغ كل منها نحو أربعمائة صفحة ، تحوي كثيراً من قصاصات الجرائد المعاصرة ، وكثيراً من الصفحات المخطوطة . وكثيراً

من الرسوم ، واحدها بعنوان « سياسة مصر الحديثة وإدارتها » (Politique et administration de l'Egypte moderne) والآخران بعنوان اخلاق وعادات » (Moeurs et coutumes) .

ويتضح للناظر في هذه المجموعة الكثيفة التي تتناول وصف مصر الحديثة ، انها المادة الاولية التي اعدها إدريس افندى لإنشاء كتاب جامع عن مصر كما عرفها . ونحن نجد بالفعل مشروع ذلك الكتاب وخطته في الصفحات الأولى من احد هذه المجلدات . وتنبئنا تلك القائمة للموضوعات بان المؤلف قد انتوى تصنيف كتاب كبير من عدة ابواب وفصول :

فالباب الأول عن « القطر » وينقسم إلى فصل عن « المناخ » ، وفصل عن القاهرة والاسكندرية ، وفصل عن مجرى النيل ، وفصل عنوانه « مصر كما هي » .

والباب الثاني عن « الناس » ، يفتتحه فصل عن سكان مصر والأجناس التي اختلطت على هذه الارض ، يليه فصل عن النساء المصريات ، ثم فصل عن الرجال وقناعة الشعب ودفع الضريبة بالعصا ، ثم فصل عن الفلاحين والصناع وفصل عن الأوروبيين في مصر .

والباب الرابع وصف للأسرة والزواج والحياة العائلية .

والباب الخامس عن « الحكومة والإدارة » فيه فصل عن الحكومة ، اى النظار والموظفين ، وفصل عن التقسيم الإدارى ، وفصل عن العدالة المفقودة ، وفصل عن الجيش والبحرية والتجنيد ، وفصل عن التعليم .

وهناك باب سادس عن الدين ، اى الإسلام والمسيحية .

وباب سابع عن المالية والضرائب وميزانية الإيرادات والمصروفات والديون التي تورط فيها إسماعيل .

ثم باب اخير عن الوالى ينقسم إلى فصل عن حياته الخاصة ، وفصل عن حياته العامة وسياسته الخارجية والداخلية .

* * *

في هذا الاستعراض العاجل لعناصر الكتاب الذى اعد مادته إدريس افندى ولم يفرغه في قالبه الأخير ما يصور لنا مدى غزارة ما تحويه تلك الاوراق الشعثاء . وقد اخترنا من بين تلك الأوراق المخطوطة صفحات طريفة عن المجتمع المصرى وولاة مصر في القرن الماضى . صفحات

مطوية لم يتح لها أن تنشر حتى اليوم لأسباب كثيرة لعل في مقدمتها تلك الصراحة التي تحدث فيها إدريس أفندى عن أسرة محمد على ، وتلك الجراة في إذاعة أسرار القصور العامرة بألوان المجون والحماقة والسرف .

ومن هنا كانت مذكرات إدريس أفندى تختلف عن كتب المؤرخين الرسميين ، بل تعارضها في أغلب الأحيان . ولقد كان هذا الرجل الحر المستقل يعي ما تؤدى إليه مدائح الأقلام المرتزقة من تشويه الحقيقة في التاريخ ، ولذلك توخى دائماً ذكر الوقائع ، ووصف العصر والقصر وصف شاهد عيان .

ولكل شاهد عيان موضع خاص يقف فيه ليرصد الأحداث والأشخاص والأشياء . وقد رأينا كيف تنقل إدريس أفندى سبعة عشر عاماً في مصر من أقصاها إلى أقصاها ، ومن بيئة « الباشوات » الحاكمين إلى بيئة الشعب المحكوم .

كيف عرف أهل القصور والدواوين من ناحية ، وكيف عاش بين أهل الدلتا والصعيد من ناحية أخرى . ناظراً هنا وهناك ببصيرة البحاثة الناقد ، مشاطراً أهل الوادى حياتهم ، مصطدماً بالسلطة الغشوم كلما مست حريته واستقلاله وكرامته . نظرته إذن هي نظرة الدارس الممحص ، والأخ العاطف على إخوة له في الإنسانية جار عليهم الدهر ، والرجل الواقف بالمرصاد لرذائل السلطان المستبد .

ولهذا كله كانت مذكرات إدريس أفندى وثيقة تاريخية قيمة للمهتمين بحياة مصر الحديثة . وهي إن لم تكن تاريخاً كاملا لقرننا التاسع عشر ، فإنها تدعونا إلى إعادة النظر فيه وكتابته بأقلام واعية محققة مخلصة للعلم وللوطن ، لا كما كتبته أقلام ناعمة معطرة لحساب أسرة أجنبية عاثت في بلادنا فساداً ، وضيعت حقوقنا بين دول العالم ، وسخرت أباءنا سخرة العبيد .

وفي مذكرات إدريس أفندى - فضلا عن قيمتها التاريخية - طلاوة القصة ، ودقة الملاحظة ، وصدق التصوير والألوان ، وشجون الحديث والألفة والخبرة والثقافة ، وسعة الأفق الإنساني ، وإحساس مرهف بالحياة الكامنة في تفاصيل مجتمعنا المصرى ، وفهم عميق لروحنا القومي الأصيل الذى نحيي اليوم بعثه ، وانطلاقة من إساره ، وتوثبه إلى أفق الحرية والكرامة الموفورة .

وإذا اجتمعت هذه الصفات أو شيء منها في أوراق مخطوطة مطوية مهملة ، كان ذلك خليقا بأن يخرجها إلى النور .

لقد أنصف إدريس أفندي مصر ، فمن حقه عليها أن تنصفه .

■ ■ ■



نشرت صفحات من هذا الكتاب في مقالات الدكتور أنور لوقا التالية :

— « إدريس أفندي مؤرخ أهمله التاريخ » . المجلة ، عدد ١٥ مارس ١٩٥٨ ، ص ٤٧ — ٥٩ .

— « إدريس أفندي وظالم باشا » . الهلال ، عدد ١١/٦٦ ، نوفمبر ١٩٥٨ ، ص ٦ — ١٥ .

— « من مذكرات إدريس أفندي : محمد علي وأسرته صفحات مجهولة » . المجلة ، عدد ٩٣ ، سبتمبر ١٩٦٤ ، ص ١٢ — ٢٦ .



دار مصرية من الداخل ـــ لوْحة

منشورة فى كتاب إدريس افندى ـ الفن العربى

تقـــــديم :

إدريس أفنـدي وظـالم بـاشا

« إدريس افندى » مستشرق فرنسي يكاد يكون مجهولا من الكثيرين ، برغم مواقفه المجيدة وكتاباته الجريئة وفنه البارع ، بل لعله ظل مغمورا لأنه انفق حياته في البحث عن فنون حضارتنا العريقة ! ولد عام ١٨٠٧ ، في مقاطعة الفلاندر بفرنسا . ولم يسمه أبوه « إدريس » إذ كان من أسرة انجليزية الأصل هاجرت إلى فرنسا فرارا من جور الملك « شارل الثاني » ، بل عرف باسم « بريس دافين » Prisse d'Avennes وهو تحريف فرنسي للاسم الانجليزي Price of Aven وكان أبوه مفتشا للغابات التي يملكها الأمير تاليران . وحين أصيب جنود نابليون الذين دوخوا أوربا ، بالتيفود عام ١٨١٤ ، تطوع الأب لتمريض إحدى الفرق ، فقضت عليه العدوى .

* * *

وفي عام ١٨٢٢ دخل : بريس مدرسة الفنون والصنائع بمدينة « شالون » ، وتخرج في التاسعة عشرة من عمره مهندسا معماريا . وكانت مغامرات نابليون قد غيرت مفهوم الحدود الجغرافية في مخيلات الشباب ، فدفع الطموح صاحبنا إلى الانخراط في صفوف ثوار اليونان الذين نهضوا ينتزعون استقلالهم من جيوش السلطان وإبراهيم باشا .

* * *

ثم ابحر إلى الهند حيث عمل سكرتيرا لحاكمها العام . وعاد بعد ذلك بقليل إلى فلسطين . وهناك يلغه أن « محمد علي » في حاجة إلى اخصائيين اوربيين لتنظيم الجيش والمدارس وتنفيذ مشروعات الري والزراعة ، فالتحق بخدمة الباشا عام ١٨٢٩ ، مهندسا للري في اول الأمر ، ثم أستاذا للطبوغرافية في مدرسة اركان الحرب بالخانكة ، وفي الوقت نفسه مربيا لأبناء إبراهيم .

ولكنه لم يلبث ، لاعتداده بنفسه ، ولشدة ابائه وشممه ، أن اصطدم بناظر المدرسة التركي المتغطرس « عبد الله بك » . وبعد ملحمة عنيفة هوى فيها الكرباج على جسمه ، فابرز خنجره ومسدسه متحديا القوة بالقوة ، قدم استقالته ، فنقله ناظر الحربية إلى دمياط ، استاذا للتحصينات في مدرسة المشاة . وفتكت بمصر عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٤ أوبئة الكوليرا والطاعون ، فانبرى « بريس » لتمريض المصابين وصارع الموت الذي أوشك أن يصرعه .

واغنت تلك التضحية نفس الرجل الكريم .. لقد عاشر شعبا مريضا جائعا بائسا ، وهو بعينه هذا الشعب الذي صنع الحضارة منذ فجر البشرية .. واحب « بريس » المصريين ، وفهم مشاكلهم ، وميز جوهر صفاتهم تحت الأسمال التي ألقاها عليهم الحاضر المظلم ، وتعمق مجتمعهم ، وتامل تفاصيل حياتهم ، وتكلم لغتهم ، واهتم بماضيهم ، وانغمر في هذا كله حتى ضاقت على إنسانيته المتفتحة حدود الوظيفة الصغيرة . فاستقال عام ١٨٣٦ ، وتحرر من القيود الرسمية ، وتفرغ لدراسة الهيروغليفية ليجتلي تاريخ هذا المجتمع الذي يعيش فيه ، وكيف تطور من حال إلى حال .

وارتدى الزي الشرقي ، وسمى نفسه « إدريس » بدلا من « بريس » وجاب قرى مصر متنقلا من الدلتا إلى الصعيد ، بين الفلاحين الذين يانسون إليه ويلقبونه بـ « إدريس افندي » . وبعد زيارة « لأبي سنبل » اقام في الاقصر لدراسة « طيبة » ، ولحماية

ما أمكن من أعمدة الكرنك التى أقبل عمال الباشا يكسرونها لتغذية معمل البارود . ولم يكن بد ـ وهو رجل شديد العريكة حريص على كرامته دائما ـ من أن يصطدم مرة أخرى ، بناظر الأقصر التركى وخفره .

لقد أدت أبحاث « إدريس أفندى » فى التاريخ المصرى القديم وفى تاريخ العمارة العربية إلى نتائج كبيرة يعرف المختصون أهميتها ، ودورها فى تقديم تلك الدراسات . وإذا لم يتسع المقام هنا لعرضها ، فحسبنا أن نشير إلى « الألبومات » الضخمة الثمينة التى سجل فيها الفنان بالرسوم الدقيقة والألوان المتقنة روائع الفن المصرى خلال مختلف العصور . وجمع « إدريس أفندى طوال السبعة عشر عاما التى أنفقها على ضفاف النيل ـ وكان قد سافر إلى باريس أثناء حكم عباس وعاد بعد تولى سعيد ـ مادة غزيرة عن مصر الحديثة ، استمد منها المقالات التى راح ينشرها فى الصحف والمجموعات العلمية ، مؤثرا مواصلة منشوراته ومطبوعاته على منصب سفير فرنسا فى تركيا ، الذى يقال أن حكومة نابليون الثالث عرضته عليه . وحينما اشتد عليه المرض فى فرنسا عام ١٨٧٩ ، اضطرت زوجته إلى أن تبيع لبعض الانجليز جانبا من مخطوطاته وأوراقه ورسومه ومجلدات مكتبته النادرة .

* * *

على أن أهم أوراقه بلا شك هى التى بقيت فى فرنسا ، وآلت إلى قسم المخطوطات بدار الكتب بباريس . هناك اثنا عشر مجلدا خلفها « بريس دافين » ، تتناول دراسة مصر من مختلف النواحى . وقد طالعت بين هذه الأوراق بوجه خاص ثلاثة مجلدات ، يحوى كل منها نحو أربعمائة صفحة ، وتضم خليطا من الرسوم والمذكرات المخطوطة وقصاصات الجرائد المعاصرة ، ويحمل أحدها عنوان « سياسة مصر الحديثة وإدارتها » والآخر عنوان « عادات وأخلاق » . ويتضح للناظر فى هذه المجموعة الشعثاء أنها المادة

الأولية التى أعدها « إدريس أفندى » لإنشاء كتاب مفصل عن مصر كما عرفها ، ولكن الأيام لم تمهله حتى يفرغه فى قالبه الأخير .

ولن نناقش هنا فكرة هذا الكتاب الضخم الذى لم يكتبه صاحبه وحسبنا أن نعي ما سجله هذا الرجل الحر المستقل من أسرار الولاة الذين عاصرهم وعاشرهم ، فقد اتصل بهم - من محمد على إلى إسماعيل - ووصف أساليب حكمهم وخفايا حياتهم وصف شاهد عيان .

ويتميز حكم « محمد على » فى مذكرات « إدريس أفندى » بطابع القسوة والظلم والإرهاب . فإن منظر تعذيب أفراد الشعب تعذيبا رسميا منظما كان يتكرر فى كل يوم ، فى كل قرية ، وفى كل مدينة ، بل وفى أسواق القاهرة . وقد صور « إدريس أفندى » موكب « المحتسب » وعدالته الهمجية فى هذه السطور :

« يطوف المحتسب ، وهو الآغا المكلف بالإشراف على الأسواق ، بالمدينة على صهوة جواده ، يتقدمه « القواسون » حاملين ميزانا ضخما ، ويكتنفه ويتبعه منفذو أحكامه وخدم عديدون مسلحون « بالكرابيج » أو بالعصى الكبيرة ، فيستعرض الموازين ، والأثقال الوزن التى يستخدمها الباعة ، ممتحنا من يختاره أو تختاره المصادفة . وقد يستجوب الخدم الذين اشتروا شيئا من المواد الغذائية ، ليعلم الثمن الذى دفعوه ، والوزن الذى أعطى لهم ، ومن أى بائع كان ذلك ، ثم يأمر بأن توزن أمامه المواد . فإذا اتضح غش فى الوزن أو غلاء فى الثمن ، استقدم التاجر وأمر بضربه بالعصا فى الحال . فيقبض خدمه على المطفف ، ويطرحونه أرضا ويشدون ساقيه فى « الفلقة » ، ثم يوقع على بطن قدميه عدة منفذين مسلحين بالكرابيج مائتى أو ثلثمائة ضربة يعدها الآغا فى هدوء على حبات مسبحته الوردية . ويسأل المحكوم عليه العفو ، متوسلا بالنبى ، ثم بالآغا ، ثم بأولاده وهم أعز ما لديه . وفى نهاية الأمر ، لا يستطيع التاجر التعس ، وقد تمزقت قدماه ، أن يعود إلى دكانه

إلا محمولا أو متوكئا على أذرع بعض أصدقائه أو بعض المتفرجين .. وتلك عدالة سريعة ناجزة ، ولكن لها عيوبها ، وتوقيع العقاب في أكثر الأحيان يوحيه التحيز . فإن لم يستغل الأغا سلطته المستبدة في ابتزاز الأموال او اغتنام السلع ، فان قواسيه وخدمه يفعلون ذلك في أغلب الأحيان » .

ويتحدث عن تعذيب الفلاح ، فيقول :

« ان الفلاح المصرى ، وقد ابهظته الضرائب ، أصبح فريسة ضغط جميع موظفي الوالي ، من أعلاهم إلى أدناهم . فإذا كان الفلاح يملك قروشا ، طمع فيها هذا أو ذاك من طغاة المتسلطين عليه ، وأجبروه على دفعها ، فإذا قاوم كان جزاؤه الكرباج أو السجن . ولا يستطيع أى إجراء أن يفلته من العقاب البدني ، فهو عقاب مباشر ، وكل ما يستطيع أن يناله من تخفيف لا يتجاوز تقليل عدد الضربات التي توقع عليه » .

■ ■ ■

ثــورة الصعــيد

ويقول « إدريس أفندى » ان الفلاحين أطلقوا على محمد على لقب « ظالم باشا » لفرط ما نالهم من التعذيب على أيدى مأموريه ، فمن الكي بالقرميد الأحمر المحمي في النار إلى تسمير آذانهم ، إلى تمزيق أجسامهم بضرب الكرباج .

ويروى ثورة أهل الصعيد التي أدت إليها تلك القسوة : بدأت هذه الثورة على الوالي ورجاله في بلدة « دراو » في أوائل عام ١٨٢٤ . وكانت إحدى فرق الجيش في طريقها إذ ذاك إلى « سنار » فانضمت إلى الفلاحين . وبلغ عدد الثائرين نحو عشرين ألفا . غير أنهم تشتتوا بعد بضع معارك لعدم تنظيم صفوفهم تحت امرة قائد خبير .

وكان نزق الباشا وحده هو مصدر الظلم أحيانا . وإدريس يورد لنا هذا المثل على استبداد يشتط إلى حد عجيب :

« من بين النباتات النادرة التي وردت لمحمد علي من أوربا ، كان غرس لزهرة الداليا . غرست تلك النبتة في قلب الأرض ، في موضع تغمره أشعة الشمس الساطعة بعيدا عن كشك الباشا الأثير ، فازهرت وأينعت ، دون أن يتنبه السيد إليها . غير أن أجنبيا تحدث يوما عن جمال تلك الزهرة ، فلاحظ محمد علي للمرة الأولى أنها جميلة ، وأمر بأن توضع النبتة في صندوق ، وتنقل تحت شجرة الجميز التي تظلل كشكه . وهنا اجترأ البستاني على الاعتراض بأن الزهرة قد تموت من هذه العملية ، فقطب الوالي جبينه وأقسم أن يدفن حيا ذلك الأرعن الذي تذوي على يديه هذه الزهرة التي استأثرت فجأة بإعجابه . وفي اليوم التالي كانت الداليا موضوعة بعناية في صندوق عريض في ظل الجميزة . ولكن الزهرة ، وقد اعتراها الذبول كانت قد أخذت تميل متراخية على ساقها الطويلة . فجيء بالبستاني ، وطرح أرضا ، وعلى الرغم من احتجاجه نالته ضربات عديدة بالسوط . فلما لم يسكت عن ترديد قوله بأن النبات لا يمكن أن يطيع الأوامر كما يطيعها الناس ، أخلى طرفه » .

■ ■ ■

ظــالم بــاشــا

ويتحدث إدريس افندى عن مكان القانون في دولة محمد علي ، فيقول :

« اننا نتورط فى الخطا إذا قلنا ان في ذهن الباشا افكارا منطقية عن العدالة وان في قلبه حبا حقيقيا لها ، فالقانون الذى اذاعه محمد علي ، والذى اطنب المطنبون في الإشادة بحكمته وتمشيه مع روح الحرية ، لم يوضع يوما موضع التنفيذ . ويدعو الفلاحون محمد علي باسم « ظالم باشا » . ولقد كانت تلك تضحية من ظالم باشا بصيته ، نزولا على مقتضيات مدح المادحين الذين حثوه على اتخاذه . ولذا سرعان ما اهمل القانون بعد تشريعه . وإذا كانت بعض اتجاهاته قد طبقت ، فإن ذلك لم يكن إلا في مناسبات نادرة ، في الاحوال التى لم تكن فيها مصالح الباشا المباشرة أو غير المباشرة تقع تحت طائلة نصوصه » .

ويستطرد إدريس افندى قائلا : « ودون أن نستعرض تلك السلسلة من أعمال الطغيان التى عادت عليه بذلك اللقب ، حسبنا ان نلاحظ أن روح محمد علي في فرض الضرائب والنهب وعدم النزاهة في ابتزاز المال روح لا نظير لها . انه لا يود أن يدفع مرتبات لاحد ، لا للجيش ولا للموظفين ولا للعمال ، ويود أن يدير امره بحيث يخدمه الجميع مجانا ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فالضباط المدنيون والحربيون ، والجنود والعمال يلاقون اشد العناء في تحصيل مرتباتهم واجورهم ، وقلما يقبضونها نقودا ، بل يجدون انفسهم مرغمين في أكثر الاحيان على ان يقبلوها سلعا خارجة من مصانع الباشا ، مرغمين بعد ذلك ـ للحصول على نقود ـ على ان يبيعوا بثمن بخس السلع التى حسبها عليهم الباشا بثمن باهظ » .

« ويكفي ذكر هذا المثل الملحوظ بين جميع ما تفتقت عنه حيلة محمد علي في سبيل النوال دون أن يفتح كيسه ، وانه ليدل على خصب قريحته في التلفيقات المالية : فبعد أن أخذ الأوربيون عكا ، رأى إبراهيم باشا تعذر الاحتفاظ بسورية إلى أبعد من ذلك الأمد ، فأرسل الأمر إلى جميع القوات بان تنسحب نحو مصر ، وأن تدمر قبل رحيلها جميع ما يمكن ان يستخدم ضدها . وهكذا هدمت الحصون ومعامل البارود وأحرقت الخيام ، وكسرت المدافع ، ودمرت العتاد الذى كانت قد زودت به ، بل لقد ذهبوا إلى حد تكسير البنادق والسيوف التي يموت حاملوها من الجنود ، وعندما وصلت القوات إلى القاهرة قدرت جميع الخسائر التى أسفر عنه هذا الإجراء الذى نفذه المرءوسون صادعين بأمر رؤسائهم تقديرا دقيقا ، وظهر أن قيمتها تعادل حصيلة مرتبات فرق الجيش لمدة ستة أشهر ، وأراد الباشا خصم هذا المبلغ من مرتبات أولئك الرجال الذين قاسوا كل عناء ومشقة ، ولم يكن بد من أن يحتج سليمان باشا بشدة حتى يحول محمد علي عن رأيه العنيد ويقنعه بالعدول عن ذلك القرار الغريب » .

لقد رأى إدريس أفندى في وضوح أن « وضع واحترام النظم التى تكفل حماية الضعيف والمظلوم شيء يتناقض مع تلك الميول » ، ورأى محمد علي يستوحي المثل القائل : « انما الشعب كالسمسم ، ينبغي أن تسحقه لكي تخرج منه الزيت » . ويعود إلى رثاء المصريين في صفحة أخرى :

« أما المصريون ، شهداء الدولة ، فهم الألعوبة الدائمة في أيدى رجال الإدارة ، أصحاب الأمر والنهي ، والتصرف في قوم جهلة لا نصير لهم ولا خوف من شكواهم وتذمرهم . وهكذا يغش رجال الإدارة الزارع عند تقدير كمية ما تغل أرضه ، بموازين ومكاييل زائفة . وإذا حل أوان البيع قيل للفلاح دائما انه لم يجن إلا قطنا رديء الصنف من الدرجة الثالثة . وفوق ذلك ، يستطيع عدد غفير

من الموظفين أن يطالبوه مرارا بدفع مبالغ من المال فإذا امتنع كان جزاؤه الضرب بالعصا وإذا اذعن ودفع فوراءه الكرباج أيضا لإرغامه على دفع مبالغ أكبر . وهم يأخذون الفلاح في السخرة ، وبدلا من أن يدفعوا له أجره يقولون له ان قريته مدينة للحكومة ، وتلك شريعة التضامن ! .. وإذا ازداد رخاء المحصول في عام ، ازداد بؤس المصريين لأن محمد على يقوم إذ ذاك بعمليات أوسع . فمثلا في سنة ١٨٢٩ كان الشعب يموت من الجوع بينما كانت جبال من الغلال تحت امرة الباشا دون أن يكون للمصريين التعسين الإذن ولو بشراء شيء منها » .

وينتهي « إدريس افندى » إلى انه لا شك أن « محمد على » رجل فذ ، ولكن هل كان غرضه حقا هو سعادة مصر ومجدها « من الخطأ أن يقال ان مصر قد تمدنت ، فهي لا يمكن أن تتمدن فجاة بهذه الصورة . انما المدنية محصول سلسلة من العمليات المتتابعة ، ولا يمكن أن تأتي ارتجالا في ربع قرن ، وإذا لم ننظر إلا للنتائج في تقدير الأمور ، فإن المدنية تنتج رخاء مازالت مصر للأسف بعيدة من أن تحظى به .

لم يعرف محمد على في حياته أي تربية أولية ، فورطه في الخطأ اتخاذه من نفسه مثلا ، واتباعه غريزة السيطرة . بدا له انه مستطيع أن يصنع العلماء كما جند الجنود بمجرد قوة إرادته . على حين انه لو تمشى مع طبيعة الأشياء لاستطاع ـ وكان ذلك اقصى ما يبلغه ـ أن يعد لأمته من بعده ، بمعاونة الأساليب الخاصة لكل فرع من الفروع ، فئة متخصصة من الشعب قادرة على أن تفهم النظريات وعلى أن تحاول تحقيقها . ولكنه لا يمكن أن يصنع أطباء ومهندسين من شبان لم يكتسبوا المعارف العديدة المجردة ، والاستعدادات الملائمة التي ينقلها إلى نفس المرء تعليم تمهيدى ينمي ملكات الصبا ، تلك الذخيرة التي لابد منها لطالب الدراسات العليا .

لقد قنع محمد على بانه جعل الصحف الاوربية تضج باسمه ، وانه أخضع الشعوب المحيطة به وارهب السلطان فى اسطنبول . وان الناظر إلى جميع الأعمال التى زخرت بها حياته ليرى واليا متلهفا إلى المجد لا مشرعا يضع اساس الرخاء الذى ينبغى ان يسود من بعده ، ولا مجددا يسعى إلى إقامة العدل وتشكيل مواطنين صالحين لاعمال السلم من ناحية ، مدربين على اساليب الدفاع من ناحية اخرى ، ولا وطنيا يبث حب الوطن فى نفوس الشعب ويشعرهم بان بلادهم عزيزة عليهم . هو يعمل دون ان يكون مستقبل الشعب هدفا له . وحكومته حكومة فردية لا تستمد قوتها وهيبتها إلا من شخصه » .

فهل سعدت مصر بعد زوال حكم محمد على ؟ لقد تعقب إدريس افندى خلفاءه على عرش مصر . عرف إبراهيم باشا معرفة مباشرة ، ووصف لنا همجيته وشراسته ، وأورد من الوقائع الثابتة ، المؤرخة ما يدحض أيات المديح التى رددها المؤرخون الرسميون . ثم تحدث إدريس عن سياسة عباس الغريبة ، وعن مباذل سعيد وإسماعيل .

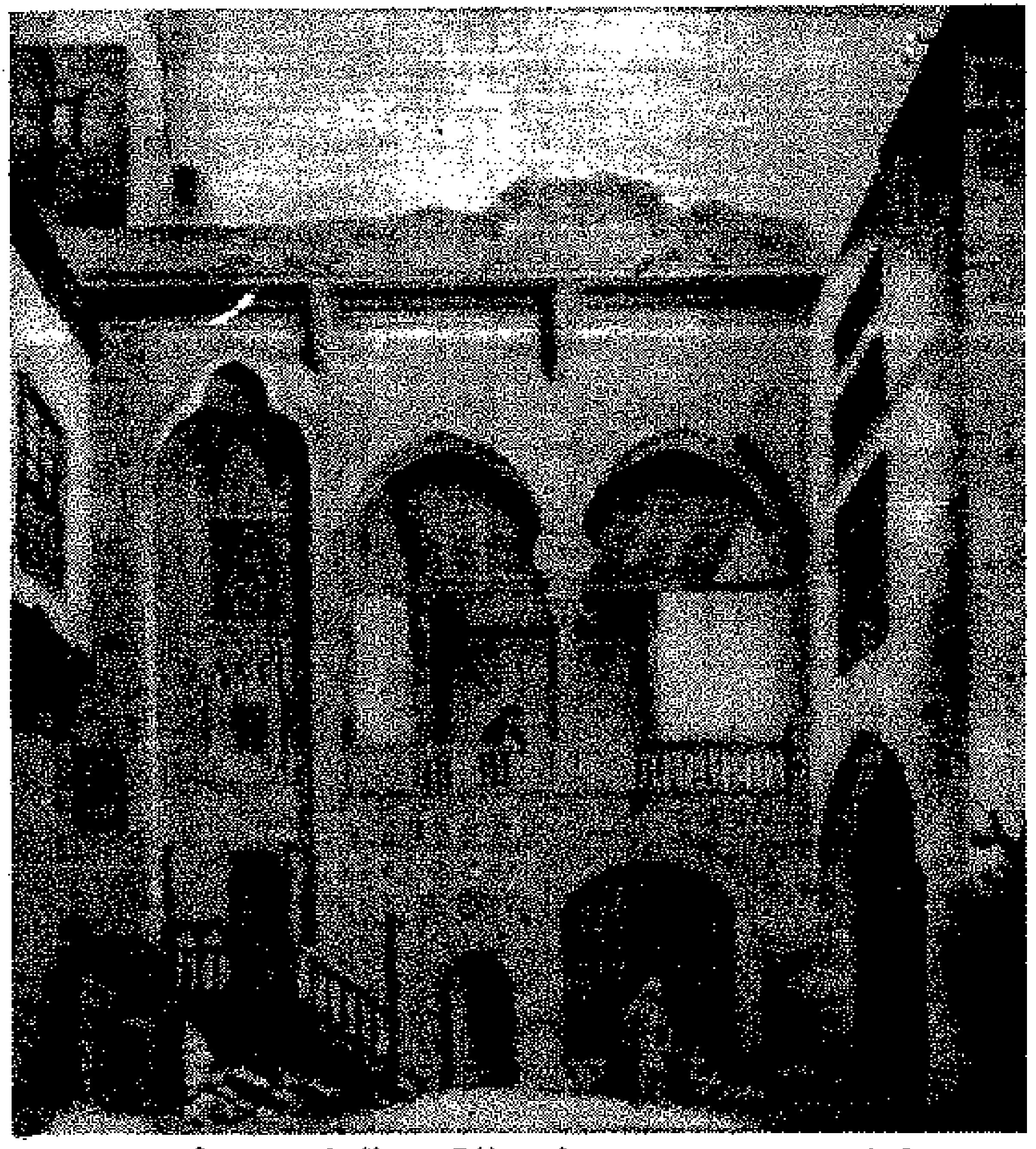
ان مذكرات « إدريس افندى » إذن وثيقة خطيرة ، لابد من الرجوع إليها لتصحيح تاريخنا الحديث .. ولقد جمعت ـ فضلا عن سجل سرى لخفايا اسرة « ظالم باشا » ـ صفات فنية وإنسانية هيهات ان تجتمع لدى كاتب واحد . ففيها طلاوة القصة ، وبراعة التصوير ، وغزارة الثقافة ، ومشاركة وجدانية عميقة لحياة أجدادنا ، وهى حياة كادت تنسيناً واقعها كتب اطنبت فى تمجيد الولاة واغفلت وجود الشعب . لقد حان لجيلنا المتحرر ان يسمع لهذا المؤرخ الثائر .

---

* الهلال ، نوفمبر ١٩٥٨

■ الجزء الأول ■

صور من المجتمع المصرى في القرن التاسع عشر



فناء بيت مصرى فى القرن التاسع عشر
نقلا عن كتاب (الفن العربى) المجلد الأول

القاهـــرة

لا أعرف مدينة تتقابل فيها الأضواء تقابلا أروع منه في القاهرة . فإن السائر في الشوارع الضيقة بتلك المدينة التي تنتشر فيها رائحة القرون الوسطى ، يروعه في كل لحظة مشهد الترف المسرف إلى جانب الفقر المدقع . وتتصادم في القاهرة البهجة والآلام دائما ، فكثيرا ما رايت موكب عروس تتقدمه جوقة الموسيقيين يلتقي بموكب جنائزي دون أن يقطع الموسيقيون عزفهم ودون أن يقطع المشعوذون لعبهم ، بل ورأيت في كل مرة تقريبا أعضاء الموكبين يتبادلون الحديث في ألفة الإخوة والأخوات .

ولا يقل عن ذلك روعة ما تلاحظ من تباين بين الأجناس التي تضطرب في تلك الشوارع المزدحمة . فهناك يرى المرء جميع أركان الأرض ممثلة ، الأبيض ذا الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين . والزنجي المنخفض الجبهة الغليظ الشفتين ، والعربي والتركي والشركسي والهندي والحبشي . كل أولئك يختلطون ويتزاحمون بالمناكب ، ويتكلمون لغات برج بابل .

■ ■ ■

مناظر من الأسواق

فى كثير من الاحيان ، عندما اخرج لقضاء اموري ، ادخل قهوة وهناك أتسلى بتامل المشاهد المتنوعة التى تجرى أمام انظارى . احب ان تحيطنى التموجات الخفيفة التى ينشرها « تمباك » نارجيلتى او غليونى الطويل ذى المبسم العنبرى . والدخان هنا لا يثير سيلان اللعاب المنفر الذى يجعله كريها فى أوربا ، بل يجد المرء لهذا الدخان – وقد اصبح رقيقا جدا لمسيره فى انبوبة طويلة ، أو لانه قد تنقى فى الماء – طعما يبحث عنه دون جدوى فى كل مكان آخر . وإنه ليبقيه وقتا طويلا فى فمه ثم يطرده قليلا قليلا وهو يتذوق عذوبة تبغ « صور » أو « اللاذقية » او هذه الأنواع المكيفة الأخرى التى تتفنن فيها الشعوب الشرقية .

اجلس وفى يدى غليونى ، وفى الاخرى فنجان القهوة ، والاحظ اللوحة الحية ، الصاخبة ، المتنوعة دائماً ، يقدمها لى الجمهور الذى يتجمع ويضغط بعضه بعضاً فى هذه الشوارع الضيقة التى تحيطها الدكاكين من كل جانب . ولا تظن أن التجارة والاهتمام بقضاء الاعمال هما اللذان يجمعان فى شارع من شوارع القاهرة هذا الجمهور الكبير ، بل إن ذلك يرجع قبل كل شيء إلى عدم الاتصال بين الأحياء الرئيسية حيث يتالف نصف مجموع الشوارع من ممرات مسدودة .

وكثيراً ما تسد هذه الشوارع الضيقة قوافل جرارة من الجمال المحملة تضطر المارة إلى ان يقفوا لكى يفسحوا لها مكاناً . وهى – بمشيتها الكسلى واقدامها العريضة ورقابها التى تنحنى تارة نحو الأرض ، وترتفع تاره أخرى ، بينما تتارجح عليها من جانب إلى جانب رءوسها التى تنظر فى توان إلى ما يحيط بها – مشهد بالغ الطرافة .

ها هو ذا الكاتب القبطى ، المتواضع ، تحت عمامة سوداء كثيرة الثنيات ، والدواة مغمدة فى طيات حزامه كالخنجر ، يمر هادئاً على ظهر حماره قاصداً ديوانه .

والالبانى يختال فى مشيته ، مرسلا نظرات ماكرة شرسة ، وهو يدور محتالا فى هذه الأسواق المديدة . إن إزاره الأبيض ، واردانه الطويلة وقد شمرها إلى كتفيه ، وسترته التى يكسوها تطريز منطفيء اللون ، وخنجره

المستطيل ، وغدارته المسرقة في الزخرف ، ومعطفه ذا القلنسوة الموشحة بجميع الالوان ـ كل هذا يؤلف أطرف الأزياء .

وتُقبل ايضاً لتنويع المشهد نسوة محجبات الوجوه ، مختفيات في اردية فضفاضة ، يحملن على اكتافهن اطفالا تكسوهم التمائم ، او على رءوسهن إناء جميلا . اما نسوة الطبقة الغنية ، فتراهن محجبات من الراس إلى القدم باردية طويلة من الحرير الاسود ، وقد ركبن حميراً اسرجت بسجاجيد نفيسة يرعاها السواس من كل جانب ، ويتقدمها الخصيان ، ذاهبات إلى الحمام او إلى اداء زيارة .

والعربي ـ الفخور باستقلاله ، متدثراً بمعطفه الابيض الفضفاض ، وقد شد بندقيته الطويلة إلى حمالة حول كتفه وصدره ، وامتطى صهوة فرسه ـ ياتي ليقدم ثمرة خدماته مقابل لوازم الحياة الاولية .

والدرويش المعروف بمجونه ، وقد كست راسه طاقية من اللباد الرمادى ، ونزل شعره حلقات على قفاه ، يقبل عليك ليضليك ببركاته .

والمملوك المتباهي بعبوديته ، الابيض البشرة ، وإلى احد جنبيه سيف مقوس و إلى جنبه الآخر حمالة الرصاص ، يطوف في خمول بممرات السوق .

وإذا تقابل عربيان كانا لم يلتقيا منذ امد بعيد ، اخذ كل منهما يد صاحبه ست مرات او ثماني ، وقبّل كل منهما يده ثم وضعها على قلبه مرددا « كيف حالك ؟ » .

وهناك الاولياء ، نوع من المجانين مباح لهم كل شيء ويبدى نحوهم السذج احتراما دينيا . إنهم اشخاص يتكلفون التقوى ، رجال قديسون نصف عراة ، يتركون مكشوفا ما يدفعنا في العادة شهوة مفهومة إلى أن نستره ، تجدهم جالسين في الاركان او يتقلون في الشمس . وكثيرا ما رايت نسوة تقيات متدينات يقتربن من هؤلاء الأولياء البرص ويقبلن ايديهم المنفرة .

ويمر بك الحلاق فتعرفه بتلك العصابة الطويلة من الجلد التي تتدلى من حزامه وعليها يقلب سلاحه ، وبهذا الطست النحاسي المبيض بالقصدير يتابطه تحت ذراعه ، وبهذا الخُرج وتلك المراة المحلاة بقطع من الصدف .

× × ×

ويمر بك مكفوفون يقودهم غلمان صغار ، وحمير محملة بالشمام أو البطيخ ، وبرص ، وكلاب ضالة ، وباعة متجولون ، ثم متسولون مصابون باورام ضخمة أو بداء الفيل البشع ، وصناع يحملون أثقالا ، أو يدقون القهوة في هاون بقطعة غليظة من الخشب مزودة بكتلة كروية لتكون اشد وقعاً . وتختلط صيحات السواس التي لا تنقطع « اوع رجلك ! ضهرك ! عندك ! » ونداء الباعة ، وعواء الكلاب الضارية وقد وطئتها اقدام الجياد والحمير والبغال المحملة بالقرب ، وولولة النساء الحزينات وإنشاد المؤذنين يدعون المؤمنين للصلاة .

وفي غمار هذه المعمعة ، كثيرا ما تشهد مرور موكب عظيم قد احتشد فيه رجال يرتلون بصوت مرتفع آيات من القرآن ، تصاحبهم أصوات ناشزة من الطبول والمزامير والأبواق الصفيحية التي تبعث اقصى ما تستطيع ان تتخيله من صوت ثاقب ، تطلقها جميعا لتحوز إعجابك جوقة من الموسيقيين على ظهور الحمير او الجياد دون ان تبالي بتوافق الانغام ، يتبعها هودج مزين ببهرج من « القرتر » يحوى بعض آثار الشخصية التي يحتفلون بعيدها ، ثم عدد من المباخر ، وشيوخ يحملون رايات من جميع الاشكال والالوان ، ثم موكب جرار من الاتقياء والمكفوفين الذين يتبعون . فإذا اضفت إلى هذا الهرج زركشة الأزياء .. تكونت لديك فكرة عن تلك المسارات .

ولكن كل هذا الصخب وهذا الازدحام لن يعطيك إلا صورة ضعيفة جدا من اللوحة التي تقدمها إليك أسواق القاهرة ، حيث يختلط القبطي والعربي والسورى والتركي وزنج سنار ودارفور والمغربي والحبشي والفارسي والهندى واليوناني والأوروبي ، ويضطربون ، ويتدافعون بالمناكب للأغراض نفسها .

على أن المنظر في داخل القهوة حيث تنشر الاقداح واوراق اللازقية بخارها أو دخانها بلا انقطاع . منظر بالغ الطرافة ايضا . هناك من ابهظتهم البطالة أو أسباب العدم فاتوا بمظهرهم الجليل يلتمسون في هذا المكان الصحو من سبات وجودهم ، وفلاحون مساكين يتناسون شقاءهم باحتساء القهوة العربية في تلذذ . لقد امسك كل منهم « الجوزة » في يده ، وقبع هؤلاء او رقدوا على الأريكة ، منهمكين في لعب المنجلة او الطاولة او الشطرنج . واجتمع اولئك حول متسول ورع يلهيهم برواية اقصوصة ماجنة ، إذ قلما يضحكون لشيء آخر .

ويقص الراوى فى جلالة تلك الحكايات العجيبة ، سهرات ألف ليلة وليلة ، التى يقاطعها جمهور المستمعين بين لحظة واخرى بصيحات التعجب : « الله ! عجايب ! والله شيطان ! » ، على حين قد أخذ آخرون فى الغناء ، وقعد غيرهم على السجاجيد يسبحون بمسابحهم .

■ ■ ■



رسم إدريس أفندى صورة « العوالم »
وبحث عن تاريخهن بحثا دقيقا

المحتسب - وهو « الاغا » المكلف بالإشراف على الاسواق - يطوف في المدينة على صهوة جواده . يتقدمه « القواسون » حاملين ميزانا ضخما . ويكتنفه ويتبعه منفذو احكامه وخدم عديدون مسلحين « بالكرابيج » او بالعصي الكبيرة . فيستعرض الموازين ، واثقال الوزن التي يستخدمها الباعة ، ممتحنا من يختاره او تختاره المصادفة . وقد يستجوب الخدم الذين اشتروا شيئا من المواد الغذائية ، ليعلم الثمن الذى دفعوه ، والوزن الذى أعطى لهم ، ومن اى بائع كان ذلك . ثم يامر بان توزن أمامه المواد ، فإذا اتضح غش في الوزن او غلاء في الثمن ، استقدم التاجر وامر بضربه بالعصا في الحال .

يقبض خدمه على المطفف ويطرحونه ارضا بحيث ينكفيء وجهه ناحية الأرض ويشدون ساقيه في « الفلقة » ، وهي نوع من النير الخشبي ، ثم يوقع على بطن قدميه عدة منفذين مائتي او ثلاثمائة ضربة بالسياط يعدها الاغا في هدوء على حبات مسبحته الوردية .

ويسال المحكوم عليه العفو ، متوسلا بالنبي ، ثم بالاغا ، ثم باولاده وهم اعز ما لديه . وفي نهاية الامر ، لا يستطيع التاجر التعس ، وقد تمزقت قدماه ، ان يعود إلى دكانه إلا محمولا او متوكا على اذرع بعض اصدقائه او بعض المتفرجين .

واحيانا ، إذا تكرر الغش من المطفف او إذا اتفق مع آخرين لرفع ثمن المواد الغذائية إلى درجة تثير شكوى الجمهور ، يامر المحتسب بتسمير اذنه لكي يكون عبرة رادعة .

وتلك عدالة سريعة ناجزة ، ولكن لها عيوبها . وتوقيع العقاب في اكثر الأحيان يوحيه التحيز ، فإن لم يستغل الاغا سلطته المستبدة في ابتزاز الاموال او اغتنام السلع ، فإن قواسيه وخدمه يغتنمون ذلك في اغلب الأحيان ، وهو امر سهل حيال هؤلاء التجار الذين لم تحدد لهم رقابة ميزانا ولا مكيالا أو حيال باعة فقراء يكلفهم شراء اثقال الوزن النحاسية ثمنا باهظا لا يستطيعون تسديده فيستعيضون عنها بقطع من الحجر ذات وزن مناسب .

الأمن والعقوبات

مازالت مصر لا تعرف النظم الاوربية المهذبة .
ويندهش المرء لقلة الشرطة وقلة الاضطراب مع ذلك .
ولا يجد الأجنبي في اى مكان آخر حرية اكثر مما يجد في مصر . فالرحالة يقبلون ويقيمون وينتقلون من اقليم إلى اقليم دون أن تهتم اية سلطة بحضورهم . أو تتحرى وظائفهم . ولاى سبب يقومون برحلاتهم ، ولا يلزمهم احد باستيفاء الاوراق ، فهي شيء مجهول هنا .

على ان عدم المراقبة هذا لا يفسد الأمن الخاص واستتباب الحياة العامة . فالطرق بوجه عام مامونة على الرغم من قلة طارقيها . ولا يبلغ عدد حوادث السرقة والقتل ذلك القدر الملحوظ الذى يبلغه فى الدول الاوربية ، وهذا مع حفظ النسبة ، ولكنه امر قد يرجع إلى ان تلك الجرائم لم تجد بعد وسائل النشر التي وجدتها بين اهل أوربا .

وفي تلك الأسواق لا تغلق الدكاكين غالبا - وهى التى تجتمع فيها كل أنواع السلع الثمينة السهلة الحمل - إلا باقفال خشبية رديئة ، وعندما يتغيب التاجر عن دكانه اثناء النهار ، يسدل على بابه شبكة بسيطة . واما مخازن الجمرك حيث يتجمع عدد كبير من السلع فقد عهد بحراستها إلى بضعة حراس ، على حين تنبسط مستودعات الغلال فى الهواء الطلق .

وقلما تعاقب السلطة بالسجن ، ولكنها تستخدم الضرب بكل سهولة وهو تعذيب فظيع همجى كثيرا ما يدفعونه إلى حد القتل . فهم يخلعون نعل المذنب ويرقدونه على بطنه ، رافعين فى الهواء قدميه اللتين يوثقونهما ويشدونهما بعصا محلاة بأحزمة تسمى « الفلقة » وعلى هذا الجزء يضربون « بالكرباج » إلى أن يقول القاضي كفى . وكثيرا ما يوقعون هذا العقاب على الدبر . ولقد رأيت وزير الحربية السابق « محمود بك » يأمر بضرب بستاني قد سرقه ضربا على قدميه ودبره وبطنه ورأسه حتى مات الرجل .

وحسب الرواية ، قد حدد النبي أن يكون الضرب بغصن النخلة أو بعصا مستوية من الجلد . وهكذا يفعلون فى الجيش وفي إدارات القاهرة . ولكن الحكام فى الاقاليم مازالوا يعمدون إلى الضرب « بالنبوت » وهى عصا غليظة تجرح المحكوم عليه فى اكثر الاحيان .

وقد خطر لمحمد علي أن العقاب يكون مفيدا بإنشاء الأشغال الشاقة . وجميع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة هم من التعساء الذين الحقوا بأبدانهم عاهات للفرار من التجنيد . ويلاحظ بينهم أيضا بعض التلاميذ الذين أرسلوا إلى أوربا وحكم عليهم بالأشغال الشاقة لأنهم لم يستفيدوا من النفقات التي صرفها الباشا - ناشر المدنية - على تربيتهم .

* * *

فن التجارة

اذكر ما روى لي أحد التجار من أن مشتريا أتاه فساومه على سلعة ، ثم قال له بعد أن اتفقا على الثمن إنه لا يستطيع شراءها منه في الحال . فأجابه التاجر :

« تعال غدا ، فإني قد استفتحت اليوم . ولكن إذا لم تستطع الانتظار فاذهب إلى جاري الذي لم يبع شيئا . ان لديه السلعة التي تريدها . وقل له إنك اتفقت معي على السعر . فالتاجر إن لم يستفتح قبل الظهر لن يرزق في بقية نهاره .

* * *

منادات الباعة في القاهرة

لمعظم باعة القاهرة المتجولين ، ولا سيما بائعي الفاكهة وبائعات الباقات مناديات غريبة جدا ، فيها صور شعرية ، وقد تحمل معنى مزدوجا . وفي أغلب الأحيان يتعذر عليك أن تعرف ماذا يبيعون وراء تلك الهتافات أو تلك الإعلانات .

تنادى بائعة اللبن قائلة : « يا صباح اللبن ! أو صباحك لبن ! » ، أى ليكن صباحك أبيض كاللبن .

وكثيرا ما يعلن عن قصب السكر في الشوارع بنداء « أبيض عالي والثمن غالي » ، وهي عبارة يفهم السامع أنها عود القصب الذى يغلو ثمنه كلما كان طويلا أبيض اللون ، وأنها تعني من ناحية أخرى نهد أو عانة البائعة التي تكون في هذه المناسبة فتاة دائما .

ويعرضون قصب السكر أيضا للبيع منادين : « يا اللى يزور حماته بالنبوت يا أبيض ! » . فالمصريون يزعمون أن الحماة تسدى لابنتها دائما شر النصائح ضد زوجها ، وهي لهذا السبب خليقة بأن يزورها ختنها حاملا عصا في يده .

وتصيح بائعة البرتقال : « يا بردقان يا عسل ! » أو « كريم عليم يا بردقال ! » داعية الله مكنية عنه بصفتين من صفاته راجية أن يسهل البيع ويروجه .

ويصيح بائع الليمون الحلو : « عسل يا طرنج عسل ، دوا للقلب يا طرنج عسل ! » . فهم يزعمون أن هذه الثمرة طيبة للمعدة ، ويخلط البائع هنا بين المعدة والقلب .

وتعلن بائعات الفاكهة عن سلعهن ، كما يفعلن لدينا ، بإضافة اسم المكان إلى اسم الثمرة : « فوة الرمان ! » أى أن ذلك الرمان من غرس « فوة » وهي موضع مشهور بجودة هذه الفاكهة .

ولبائعات باقات الورد مناديات شعرية ، فهن يقلن : « الورد شوك من عرق النبي فتح » أى أن الوردة كانت شوكة ثم ازدهرت إذ سقطت عليها قطرة من عرق النبي . وهن يقلن أيضا : « خلاقه عظيم ! » إشارة إلى صانع تلك المعجزة .

وتباع باقات الياسمين بمناداة « روايح الياسمين عجب ! » .
وتقول باشعات الحنة : « تمر حنة من روائح الجنة » .
والجائلات لبيع الاقمشة يرسلن احيانا صيحات غريبة لتستاثر بالانتباه ، فللإعلان عن نوع من نسيج القطن مصنوع بالة يجرها الثور ينادين : « شغل الطور يا بنات ! » .
وقطع الحلوى الصغيرة التي تسمى : « حلاوة » وهي تتركب من العسل المطهو مخلوطا بعقاقير اخرى ، تجول بنداء : « بمسمار يا حلاوة » اى أن ثمن القطعة منها مسمار .
ويجول الترمس في المدينة بالإعلانات الاتية : « مدد يا انبابي مدد ! » أو « ترمس انبابة يغلب اللوز ! » أو « ياما أحلى بوح البحر » .
وثمة نداء آخر اصعب فهما للاوربى مما تقدم ، الا وهو : « يا مسلي الغلبان يالب ! » . فهكذا يعلنون عن بذور زرع من الشمام يسمى : « عبد اللاوى » . وهم يبيعونها ايضا منادين « اللب المحمص » .
ويتجولون بثمر الجميز منادين : « جميز العنب ! » .
وينادى باعة الليمون : « الله يهونها ياليمون ! » .

■ ■ ■

الكيـــف

يبدو أن « لافونتين » قد أراد تصويره في قوله :
« إنما نعيم الإله ناشيء انهم لا يحملون هما . انه انعدام الموت ، وعمل لا شيء » .

الكيف هو الحياة في سكون البطالة ، الحياة دون مشاغل ولا رغبات ، الحياة التي تنطوي فيها النفس على نفسها فلا يصبح لها من لذة إلا في الإحساس بانها تعيش وفي تتابع التموجات والتيجان البيضاء التي يرسمها الدخان المنبعث من تبغ اللاذقية العبق . فللشرقيين النهمين إلى كل متعة داخلية هادئة كلمة تستعصي على الترجمة يعبرون بها عن ذلك النعيم الذي لا يوصف ، ذلك المزاج من راحة الجسم وطمانينة النفس ، تلك السعادة الاليفة ، وهذه الكلمة هي « الكيف » .

وحين يقارن المرء حياتنا المضطربة اللاهثة المتكبرة ، واسلوبنا في فهم السعادة ، بما يذهب إليه العرب من السكون الهنيء ، لابد من ان يفكر في بطلي الأسطورة القديمة اللذين راح احدهما يجري باحثا عن الحظ دون جدوى على حين انتظره الآخر في هدوء على سريره حيث اقبل الحظ يسعى إليه .

« الكيف » يدل على ذلك الاستعداد الموفق للاستمتاع بكل ما يعرض من طيب الأمور في أي موقف يوجد المرء فيه دون قلق لما يعرض فيه من سيء الأمور . « الكيف » يعرف الاستمتاع بالراحة إذا اتيحت ، والاستغناء عنها إذا لم تتح . « الكيف » كلمة تقرب من المثل القائل « القناعة تفوق الغنى » كلمة يحسن إدخالها في لغتنا .

■ ■ ■

الحـــريـم

إذا كانت هناك أشياء لا يراها المرء أثناء رحلاته ولا يمكنه أن يعلم علمها إلا بالإقامة في البلد الذى يزوره أمدا طويلا ، كالعوائد والأخلاق ، فذلك ما يمكن أن يقال عن النساء المسلمات ، نظرا لأنهن منطويات دائما داخل « حريم » لا يرين إلا أزواجهن وأقرب أقربائهن . محال أن نعلم شيئا عن وجودهن إلا من الأوربيات أو السوريات اللواتى يختلطن بهن . وإنك لتسب المسلم سباً إذا سألته عما يخص حريمه ، فهو لا يذكر أبدا اسم زوجته فى مجلس عام ، وهيهات أن يتحدث فى مجلس خاص عن شئونه البيتية

* * *

أما جمال المصريات ففيه شيء مما يروقك فى كل النساء الجميلات ببلاد العالم جميعا . وليس حسنهن فى انتظام التقاطيع والجمال الصارم الذى تراه فى الأوروبيات ، إنه حسن حلو ساحر ، مزاج من إفريقية وأوروبا : الوجه لطيف دون أن يكون رائع الجمال ، صغير الأنف ، كبير الفم فى وسامة ، غليظ الوجنتين قليلا . وفى عينيه الطويلتين الواسعتين لحظ فاتر فاتن غلاب . لا تبحث هنا عن بشرة زنبقية وألوان من ألوان الورد وصدر من المرمر الأبيض : بل قدر هذه البشرة السمراء التى ذهبتها الشمس .

وأعجب بصورة هذا الصدر الذى ما أبدع مثال أجمل منه . وانظر إلى هذا الخصر الدقيق كأنه خصر النحلة ، فهو الذى رسمه الفنانون المصريون على آثارهم وخلب جميع الفنانين الأوروبيين .

وإذا كانت الطبيعة لم تشكل المجموع بالنسبة نفسها من الجمال ، فقدّر هذه الأجزاء التى تعوض عن عيوب كثيرة ، ولكن بادر إلى الاستمتاع ، فالجمال هنا يعبر سريعا ، إنه زهرة لا تدوم إلا نهاراً ، وما تكاد تستمتع بها حتى تذبل : ذلك أن النساء لا يقمن بأية رياضة ولا يصطنعن أية وسيلة تحفظ حسنهن ، بل يلتمسن السمنة بكل الطرق ، فتشوههن منذ الصبا .

وتحاول المصريات - والتركيات بوجه خاص - أن يصلن إلى تحقيق تشبيهات شعرائهن القوميين : فهن يسعين إلى جعل أوجههن مستديرة كالبدر ، وإلى جعل أردافهن عريضة بارزة لينة .

ولا تبحث كذلك لدى المصريات عن هذه الملاحة التى تكسب نساءنا ما لهن من شخصية ، فليس لثغورهن سوى ابتسامة واحدة ، وليس لعيونهن سوى نظرة واحدة ، وليس في نفوسهن إلا فكرة واحدة ، هي اللذة ، كأنهن لم يخلقن إلا للحب .

* * *

وفي الشرق ، حيث لا يرى الرجال النساء ، هيهات أن يقرر الحب الزواج . فالزوج لا يختار زوجته عن عاطفة أو لتوافق في الطباع وفي الأفكار ، بل إن المنفعة هي التي تقود وتقرر . وإذا أراد تركي أن يتزوج فهو يقترن عادة بجارية سرحها أحد الكبراء ، والكبراء يهيئون دائماً مكاناً لمن يقدم لهم ذلك المنفذ . ويهب محمد على في أغلب الأحيان نساءه اللواتي يضيق بهن لمماليكه أو البكوات الذين يعتبرون تلك الخطوة دليلا من دلائل الشرف أو سبيلا إلى الثراء والجاه . أما أهل البلاد فيتزوجون غالباً فيما بينهم .

* * *

وترى قريبات الفتى - في الحمام أو في زيارة - معظم الفتيات ، فيصفنهن له بالتفضيل حتى إذا ناسبته هذه أو تلك ، ذهبت أقرب قريباته إلى طلب يدها . وأقيمت مراسم الزواج في بيت الزوج . وتخرج العروس من بيت أبيها في موكب حافل لتدخل بيت الزوجية ، حيث العبودية تنتظرها .

يفتتح الموكب قرع الطبول وعزف الموسيقيين وكل ذلك الهرج الذي يسود الاحتفالات العربية ، ويأتي بعد ذلك الراقصات والمشعوذون ، ثم المدعوون إلى العرس ثم النساء المحجبات كالعادة يطلقن صيحات الفرح الطويلة (الزغاريد) ، ثم تقبل العروس تحت سرادق من « القماش » الأحمر ، يكسوها من الرأس إلى القدم حجاب كثيف زاهي اللون ، وقد زينت رأسها بالحلي ، وتسندها في سيرها امرأتان تقودانها

ثم يقبل موكب غفير من الأقرباء والأصدقاء والأطفال وكل من يحب الاستطلاع وكل من يجتذبه الحفل ، ويقف جميع هذا الركب بين وقت

وآخر ، لتؤدي الراقصات رقصهن ، ويؤدي المشعوذون حركاتهم ، حتى يصل موكب العروس إلى بيت العريس .

وفي اليوم التالي يعرض على المدعوين منديل ملطخ بالدم أو قميص العروس . ويعير القوم أكبر الأهمية للعلائم التي تثبت أن العروس عذراء . وللزوج الحق في أن يسرح زوجته في الحال إذا لم تقدم له ذلك الدليل على عفافها . على أن هذه العادة الفظة والغريبة ليست دليلا قاطعا ، وما أكثر القابلات العجائز اللواتي يبعن للفتيات سر خداع عريس ساذج !

* * *

ليس للمرأة في نظر الشرقي قيمة أكبر من أنها تؤدي واجب الزوجية . إنه لا يعرف أبدا مناجاة الحب الحلوة ولا النعيم بالثقة . منذ أن يدخل حريمه تَمْثُلُ زوجته أمامه وقد كتفت يدها على صدرها في تواضع ووقفت عينيها على عينيه تترقب أدنى حركاته . ولا يكاد يشير إشارة حتى تهرع فتحضر له « الشيشة » أو تقدم له القهوة ، على حين لا يتفضل السيد - وقد استلقى في كسل على « الديوان » - بأن يخاطبها إلا لماماً .

والنساء شديدات التراخي ، يعجزن عن القيام بعمل طويل ، ويقضين نهارهن متمددات على أرائكهن يتعطرن أو يضفرن شعرهن ، أو يسترسلن إلى أحلامهن ، أو يغتبن غيرهن ، أو يتجسسن على سلوك جيرانهن .

ومهما يكن من شيء ، فقد توجد هنا السعادة المتوقفة على النساء ، كما توجد في كل مكان آخر . فإذا كانت المرأة شابة ، جميلة ، محبة ، فيها لطف ورقة ، فهي تستطيع أن تمنح تلك السعادة حبشية كانت أو مصرية أو فرنسية . ولعل الحياة التي اعتادتها نساء الشرق أضمن لسعادة الزوج .

فالعالم والمجتمع في نظر الشرقية يتلخص في زوجها وأبنائها وبعض الصديقات . وهي لذلك لا تجد في نفسها تلك العواطف والحاجات المتكلفة التي أنتجها المجتمع وأنتجتها الحركة الصاخبة ، حيث يبذر نساؤنا في سنوات قليلة بنفوسهن وأجسامهن .

إن الشرقيات أكثر هدوءا ، لا يعشن إلا بفكرة واحدة ، لرجل واحد ، يقفن أنفسهن على الحب ما دمن في الشباب ، وبعد ذلك يقفنها على أولادهن وعلى شئون بيوتهن .

لا تقولوا إذن : إن هذه الحضارة متاخرة ، همجية ، فلئن حرمتهن حرية كبيرة فإنها تعوضهن عنها سعادة بيتية ، وتلك اثمن السعادات جميعاً ، لانها الوحيدة التي ليست حلماً .

■ ■ ■

من الغيرة إلى الإيثار : قصتان

الغيرة التي بين نساء الحريم اقل بكثير مما نظن بوجه عام : فهناك غير قليل من النساء يعشن معاً كالأخوات ، يهتممن بنفس الشئون ، في ظل نفس الحنان ، دون ان يُتْلِفْهُنَّ الحسد . إنهن يضمرن لزوجهن او سيدهن احتراماً كبيراً ، و إذا كانت المعاملة التي يلقينها منه رقيقة نزيهة .. ابدين له في اغلب الأحيان إخلاصاً هيهات ان تجده في غير الشرق .

زوج فرنسي

عرفت في مصر ضابطاً فرنسيا كان قد تزوج ، على طريقة اهل البلاد ، فتاة قبطية ورزق منها ولداً . وكان يحبها حبا جما ، ولكنه ، بعد بضع سنوات من هذا الاقتران ، احب فرنسية اثارت في نفسه جميع ذكريات وطنه ، فطلب يدها ونالها . وإذ علمت الزوجة القبطية استيئت ، وانتهى بها الامر إلى ان رضيت في إذعان ان ترى من وقت لآخر هذا الرجل الذى وهبته نفسها . وبفضل ثرثرة صديقاتها سرعان ما وقفت الزوجة الأوروبية على الأمر ، فذهبت إلى بيت غريمتها متنكرة ، وعاشرتها بعض الوقت وإذ وجدتها ممتازة في عوائدها بقدر ما هي ممتازة في تعلقها العميق بزوجهما المشترك ، قررت ان تسكن معها ، ونفذت قرارها في اثناء تغيب الزوج غيبة طويلة . فلما عاد ، قدمت إليه الام والولد ، وقالت له :

« لقد عشنا منذ رحيلك كالاختين ، وأرجو الا تفرقنا ! »

فكان أن عاشتا معاً ، حتى فرق بينهما الموت .. وكثيرا ما يرى المرء في الحريم زوجتين ترضعان معا ثمرتي حب رجل واحد فتتبادلان كل يوم طفليهما ، إن لم يكن ذلك لتوثيق عاطفتهما المشتركة ، فلتوثيق رابطة الاخوة بينهما على الاقل .

* * *

زوجات الشيخ حسن الجبرتي

واستطيع أن اذكر الف مثل من نساء يخترن بانفسهن الغريمات اللواتي سوف يشاطرنهن فراش الزوج ، ولكنى ساقتصر على ذكر مثل واحد .. لأن الذى اورده رجل من اكبر رجال القاهرة علماً ، هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، الذى كتب تاريخاً لمصر الحديثة سماه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » وفيه يتحدث بإطناب عن أسرته وعن ابيه . والذى يعنينا هو أبوه ، الشيخ حسن ، وقد كان رجلا مثقفاً مبجلا .

أحبته زوجته الأولى أنزه الحب ، وكان من بين أعمال البر الزوجى التى كانت تنتظر عنها الثواب فى الآخرة انها اشترت عدة مرات من مالها الخاص جوارى فتيات حسناوات هيأتهن على نفقتها ، وقدمتهن سرايا لزوجها . ولما كان الشيخ حسن موفور الثراء فقد اتاح له ذلك أن يتزوج نساء أخريات ، وأن يشترى جوارى أخريات ، لم تظهر لهن زوجته الأولى اية غيرة ، وهذا مالا تفعله كل امراة .

وحين ذهب الشيخ حسن إلى الحج ، تعرف فى مكة بالشيخ عمر الحلبي الذى الح عليه فى ان يشترى له من القاهرة جارية بيضاء عذراء لا تكاد تتجاوز سن المراهقة ، وتتحلى بصفات كذا وكذا . فلما عاد الشيخ حسن مضى إلى سوق الرقيق ، وبعد بحث كثير وفق إلى شراء جارية تجتمع فيها كل الأوصاف المطلوبة . وعهد بها إلى زوجته إلى أن يستطيع تسليمها للشخص الذى كان مقدراً أن يقتادها إلى وجهتها . وحان ذلك اليوم ، فانبأ زوجته لكى تعد جميع ما يلزم ، غير انها فى لحظة فراقها للجارية ، أحست بعظم معزتها لها ، فقالت له :

— لقد الفت بيني وبين « زليخا » عاطفة كبيرة ولا استطيع ان افارقها انا لم أرزق اولاداً فاتبناها ابنة لى .

وكانت الجارية الفتاة حاضرة ، فاخذت تبكى ، وجارت انها لا تريد مفارقة سيدتها ابداً . فقال الشيخ

— ماذا انا فاعل إذن ؟

فأجابته زوجته :

— اذهب فاشتر جارية أخرى ، وأما هذه فسادفع ثمنها من مالى .

وتم ذلك واعتقت الزوجة العاقر جاريتها « زليخا » ، ثم اعدت لها « شوارها » ، وانثت لها مسكناً منفصلا ، وزفتها عروساً لزوجها الشيخ

حسن . وعلى الرغم من انها اصبحت شريكتها في الزواج واما لعدة أولاد ، فإنها لم تكن تستطيع فراقها ساعة واحدة . وبعد عدة سنوات مرضت زليخا مرضاً شديداً . فإذا السيدة العجوز تمرض بدورها ، ولا تعمر بعد وفاة تلك التي اتخذتها ابنة لها إلا ريثما تشيعها وتنظم بنفسها جنازتها .

■ ■ ■

في الحمـــــام

ان الحمامات من الداخل جديرة بالوصف . فبعد أن تجتاز ممشى طويلا ، تنتهي إلى بهو فسيح ينفذ إليه النور والهواء من فتحة عريضة بالسقف . وتحتل وسط هذا البهو في العادة نافورة تنبثق في حوضها . وتمتد حول الجدران من كل جانب مصاطب فرشت بالسجاجيد والنمارق . هناك يودع المرء ملابسه .

ولا تكاد تدخل حتى يتقدم نحوك خادم ليعينك على خلع ملابسك ، ثم يدثر رأسك بمناشف دافئة ، ويضع قدميك في « قبقاب » خشبي ، ويقتادك من يدك في ممر متعرج ينفذ منه المرء إلى المُجِمّ .

انها عدة غرف متتالية ، محلاة بفسيفسات من المرمر أو الصيني الملون يحفظها الماء دائما جد نظيفة ، وجميعها تسبق قاعة كبيرة مستديرة كسا الأسمنت جدرانها ، واتخذ سقفها هيئة قبة خفيفة لطيفة تزينها قطع من الزجاج الملون تنشر نورا حلوا جدا . وقد صنعوا في الوسط نافورة ومدوا حول الجدران أرائك يستلقي عليها المستحمون حين يدلكهم الدالكون .

وتتصل بهذه القاعة المستديرة عدة غرف صغيرة يحتوى بعضها على مقاعد رخامية في وجه صنابير تصب الماء البارد والساخن الذى يستحم به المرء ، ويحتوى بعضها الآخر على حوض يملؤه ما يغلي فيمتزج بخاره المتجدد دائما بما يحرقون من عطور . وفي العادة يستلقي المرء في هذه القاعة وقد أسند رأسه إلى وسادة صغيرة أو اتكا يدخن النرجيلة متخذا جميع الأوضاع المناسبة ، بينما تغمره سحابة من البخار تنفذ من مسامه جميعا فتصبب عرقا غزيرا .

فإذا استرحت قليلا ونديت جميع أجزاء جسمك بندى لذيذا تسلمك فتى يكاد أن يكون عاريا ، ليمرسك في رفق ، ويقلبك ، ثم يركع فيثني جميع مفاصلك دون إجهاد ودون إيلام ، ويمد جميع أطرافك ويجعلها تؤدي حركات كبيرة .

وبعد تلك المقدمات الرياضية ، قد يضع يده في قفاز بالغ الزينة ، وقد لا يصطنع القفاز ، ولكنه يفرك سطح جسمك بأكمله نازعا منه كل وسخ لاصق به ، ثم يزيل بقطعة من الحجر الإسفنجي ما يعتري قدميك من نتوء .

وبعد التدليك ، ينشر علي جسمك زيتا صابونيا ثم يغسلك تماما .

وحين تنتهي هذه العملية يكسوك بمنشفات جديدة ويعيدك إلي القاعة الأولي ، حيث تستلقي في استرخاء علي « ديوان » ، تحسو القهوة وتدخن الغليون ، علي حين يغلفك غلمان صغار بمناشف جديدة ويبداون في تدليكك مرة أخرى .

ولا تكاد النساء تخرج إلا للذهاب إلي الحمام ، فهناك يقضين في كل أسبوع ساعات حلوة لذيذة ، يعرضن ترفهن ، وعطورهن ، ويسلمن شعورهن لتضفر وتصفف فيها صفائح ذهبية أو فضية . وفي الحمام يأكلن وينمن وينفقن نهارهن بأكمله تقريبا ، وكثيرا مايتخذن بعض المطربين المكفوفين ليشنفوا أسماعهن . وتعلن ستارة تسدل علي باب الحمام انه مغلق دون الرجال ، وإذ ذاك يترك جميع خدم الحمام مكانهم لخادمات .

■ ■ ■

رذيلة تركية

الملاوطة رذيلة شائعة جدا في مصر لا سيما بين الأتراك الذين لا يتحرجون من مزاولتها جهرا .

قبل حرب المورة ، حينما كان إبراهيم باشا حاكما للصعيد ، كتب إلي القاهرة يطلب حضور حريمه . فأرسل إليه الباشا الكبير ، بدلا من نسائه ، مماليك أحداثا ، قائلا إن رجل الحرب لا ينبغي أن يكون له من حريم غير ذلك . وكذلك فعل محمود بك حيال ابن أخيه . وهذه الرذيلة التي هي أقذع عار ترمي به الإنسانية لم يكن لها أي رادع في مصر حتى سنة ١٨٣٠ إذ فرض محمد علي عقاب الأشغال الشاقة علي الجنود الذين

يرتكبون فيما بينهم هذه الفاحشة . وكان الشعور بالعار خليقا بأن ينال أولئك الآثمين منالا أشد من هذا الجزاء الذي لا رجعة فيه ولا تشهير .

وماذا أنتج نفي البغايا ؟ لقد نشر خطيئة سدوم انتشارا ذريعا ، لا سيما في الاسكندرية حيث كان المنع أصرم . فالفاشمون لا يرون بأسا من تفشي مواخير الغلمان ، ولكنهم يغرقون في البحر أي امرأة يأخذون عليها أدنى علاقة محرمة . وقد انتهكوا في الاسكندرية أطفالا أوربيين دون أن تجرؤ عائلاتهم على رفع الشكوى خشية الفضيحة . وطنطنت الصحف لمقتل فتى راح - مع أنه كان ملتحي الذقن - ضحية رفضه الإذعان لهذه الفاحشة .

* * *

لقد حرص الفنانون المصريون القدماء على تلافي تمثيل كل ما من شأنه أن يجرح الذوق الرقيق المرهف . ففي تصورهم للمواقع ، حفظوا للقتلى والجرحى جميع أعضائهم . فلا ترى شخصا بقرت بطنه حوافر الخيل . وفي المنظر الذي يمثل التحنيط ، حرصوا على الا يضعوا جثة بين يدي أنوبيس ، بل رسموا المومياء تحوطها أربطتها ، هادئة الوجه مبتسمة للموت . وفي مناظر الولادة ، تجد دائما أن عملية الوضع قد تمت ، ولا ترى أدنى شيء من التفاصيل التي تعافها العين ويمجها الذوق . أما آثار الهنود فهي عكس ذلك تماما .

* * *

دراويش

نوع من الماجنين نصف عراة ، يحتقرون - تحت ستار الدين - كل شيء ما عدا شهوات البدن . وهم من الشعب ، يتكلمون لغته ويقنعونه أكثر مما يقنعه العلماء .

في صلاة الجمعة ، أقبل درويش فوضع أمام كل من الحاضرين ورقة صغيرة يحليها إطار من الزخارف العربية وتحوي آية من القرآن . ووضع كل امرئ صدقته فوق البطاقة ، وعاد الدرويش فجمعها دون أن يوجه للمتصدقين عليه أدنى شكر .

وقلنسوة الدرويش منسوجة من تسع وتسعين غرزة لا غير ، إشارة إلى صفات الله التسع والتسعين .

* * *

حفـــلة ختـــان

شهدت هذا المساء حفلا من العادة إقامته عند ختان الأطفال . رأيت هؤلاء الأطفال على صهوات جياد باذخة الزينة يطاف بهم في أرجاء المدينة ، ويتقدمهم موكب حاشد . وعلى رأس هذا الجمع رجل يرفع عصا كبيرة مزينة بالأشرطة والأزهار ، يتبعه عدة مشعوذين ، وعوالم قد أسرفن في طلاء وجوههن وانطلقن في هيئة مثيرة يغنين ويؤدين رقصا ماجنا ، ومصارعون دهنوا أجسامهم بالزيت ومضوا يعرضون حركات رياضية . ثم تأتي بعد ذلك جوقة من الموسيقيين راكبي الحمير ، يعزفون أنغاما حادة ثاقبة لا توافق بينها ، وإنه لضجيج حقا .

وترسل النسوة اللواتي يختتمن الموكب صيحة حادة تختلط بين حين وآخر بالموسيقى ، وهي تلك الصيحة نفسها التي يستخدمنها في الجنائز مع تنويع خاص في تنغيمها بأصواتهن . ويسند كل طفل على حصانه سائسان يقفان به ما وقفت هذه « الزفة » ، وهي تقف في كل ميدان لتؤدي الرقص والألعاب .

وهكذا يعودون بالأطفال إلى بيت أبيهم حيث يقوم حلاق بالعملية ، ولا يفوت الأب أن يدعو إلى وليمة حافلة لهذه المناسبة جميع الأقرباء والأصدقاء .

ولم يأمر القرآن بالختان ، ولكن المسلمين ، بل والأقباط أيضا عقب العماد ، يختتنون بوجه عام جريا على تقليد ورثوه عن آبائهم ، ولأن ذلك من إجراءات النظافة . ويقال أن فيثاغورس قد اضطر إلى أن يمتثل للختان لكي يتحدث مع الكهنة المصريين ويباح له دخول هياكلهم . وأما اليهود فينفذونه بوصفه فرضا دينا .

* * *

كـرم .. ومـسرح .. وخلـود

لن تجد في أى مكان ارق من كرم الضيافة الذى تلقاه في الشرق . ولقد راع حسن الاستقبال هذا كل رحالة جاب تلك البلاد . وليس فيما يقدمه لك الشرقي أى مباهاة ، فهو يعتبر ذلك واجبا يفرضه عليه الدين . وانك لتصبح واحدا من افراد العائلة منذ تسكن سقف رجل مسلم . وهو لا يهتم ابدا بشخصيتك من تكون ومن أين اقبلت وإلى أين تذهب ؟ ولا يوجه إلى البائس سؤالا يحرجه أو يخجله .

على الرغم من أن الطبقة العاملة ترتدى الاسمال ، فهي ليست من الانحطاط وفساد الاخلاق بالقدر الذى تجده في مثيلاتها التي تؤلف حثالة المجتمع الأوربي . فان دينا صارما يؤثر في الشعب تاثيرا كبيرا ويمنعه من الانحراف المنفر الذى تصادفه لدينا .

ولقد افسد طباع هذا الشعب استبداد هو ادنى انواع الاستبداد ، ومعاملة هي اقسى ما تكون المعاملة ، وادى به السخط إلى ثورة نزعاته الشريرة ، ولكنه فيما عدا ذلك شعب موهوب بصفة المرح التي لم يستطع البؤس ان يغلبها ولم تستطع المظالم ان تقضى عليها ، وهو هذا المرح الذى يطرد هموم التفكير في المستقبل . أهو الاستخفاف ام الخمول ؟

إن جميع ما نبانا به الكتاب القدماء عن طبع المصريين الهادىء نجده في أهل مصر الحديثة ، كان المناخ الثابت الذى لا يتغير في هذا البلد يضفي عليهم شيئا من طبيعته .

تكاد المهن جميعا أن تكون متوارثة ، ومن النادر الا يحترف الأبناء مهنة إبيهم . و ليوم تؤلف كل مهنة ، في كل مدينة ، نقابة لها رئيس خاص . وذلك تقليد ترجع أصوله بلا شك إلى قدماء المصريين الذين كانوا ينقسمون إلى طبقات يخلف فيها الأبناء اباءهم .

* * *

المصرى رجل ملازم للدار ، قد حفظ نزعته الضعيفة إلى الاستطلاع . انه يكره الرحلات التى تبعده عن ضفاف النيل ، النهر الذى لا يستطيع ان يبتعد عنه ـ كما يقولون ـ من شرب من مائه العذب .

* * *

العـــرس الحـــزين

روى لي الجنرال « دوماس » قصة عن كرم الضيافة العربي أعجب بها الجميع . فلما رويتها لأحد المصريين ذكر لي قصة أروع منها حدثت في القاهرة منذ حوالي عشرين سنة .

فقد دعا عوّاد مشهور يسمى « محمد الجاهل » جمعا عديدا لشهود عرس ولده . وما كاد يدخل الفتى على عروسه حتى أخمدته نشوة السعادة بين أحضانها على حين فجأة . فلما أنبىء الوالد التعس بالفاجعة لم يظهر شيئا من ألمه ، وكتم ولولة نسائه بأن هددهن بالطلاق . ثم عاد فجلس مع ضيوفه ، وتناول عوده ، وأطربهم حتى الصباح . وبات يستمد من عوده ألحانا شجية عجيبة ، ويتغنى بكلمات موافقة لما يجد من شعور ، ودموعه تسح من عينيه فتستدر مدامع جميع الحاضرين .

ولما حان انصرافهم قال لهم :

— ما أردت تعكير صفوكم ، فامكثوا معى قليلا لتعزيتي . إني فقدت ولدى فى هذه الليلة ، فامكثوا لتشيعوه معي . ولتكن إرادة الله .

وأثناء تلك الليلة ردد مرارا هذه الأبيات التى ارتجلها تحت تأثير ألمه ، والتي مازالت حتى اليوم ماثلة في ذاكرة من سمعوه يغني :

سبل عيونه من غير نوم والعين سودة بتراشى
نايم على فرشه سكران ويقول حبيبى ما جاشى
روح يا عذولي إبعد عنى أنا وحبيبى متهنى
قوم قوم قوم قوم

■ ■ ■

طبق الاصـــل

من دراسة الرسوم المنقوشة على المقابر المصرية ، يوقن المرء بتأثير « المناخ » على أخلاق السكان وعاداتهم ، وذلك للتشابه الذى بين عادات أهل مصر القدماء وأهلها المحدثين ، فإن تجدد ظواهر بعينها تجدداً دوريا ، واستقرار « المناخ » هذا الاستقرار الثابت قد انتجا عادات واحدة وميلا إلى الرسوخ يتميز به المصريون . وذلك ما جعلهم يحفظون حتى أيامنا هذه ، بالرغم من الثورات الدينية والسياسية المتعاقبة ، كثيراً من العادات القديمة .

كان جميع المصريين ، على ما ذكر هيرودوت ، يحلقون رؤوسهم ، ولكن جميع المومياء ـ باستثناء بعض الكهنة ـ محتفظة بشعرها ، ورسوم المصريين تظهرهم لنا بشعرهم ولحاهم دائما .

وتصفيف الشعر خصلا متفرقة ، كما نراه بكثرة في الرسوم ، مازال من عادات العبابدة .

وكانت حمالة تشد قمصان القدماء ، كما نرى بوجه عام لدى الفلاحين .

وكانت النساء في القديم ، كما هن اليوم ، يتخضبن بالحناء ويحملن شفائر طويلة من الشعر تتدلى على اكتافهن .

وعادة التوازن في وضع متوسط بين الجلوس والركوع ، مازالت من عادات المصريين .

وقصب الغاب الذى يستخدمونه في الكتابة شيء عام لدى جميع الشرقيين

وقد واصل أبناء الشعب حمل الأوانى على راحة اليد مع تقريب المرفق من الجسم وجعل اليد بجوار الكتف ، وهذا تمثله كثير من الرسوم القديمة ، كما هي تمثل العادة المنتشرة حالياً في نقل الاثقال ، فإنهم يعلقونها على رافعة شديدة يحملها من طرفيها على مناكبهما اثنان من الرجال .

ويقول هيرودوت : « إذا مات رجل ذو مكانة ، لطخت جميع نساء بيته رءوسهن ووجوههن بالطين ، وكشفن صدورهن يلطمنها ، وطفن في المدينة » . وهذه العبارة تذكرك بالذى مازال يجرى في ايامنا .

اما الاثاث والادوات المنزلية فهي شديدة الشبه بما عرفه منها القدماء . يرى المرء في الرسوم قدوراً كبيرة كانوا يضعونها على اقدام من خشب . ويبدو ان أواني اخرى متنوعة الاشكال كانت لها خاصية التبريد .



الخلود في الحياة اليومية

امام لوحة من الفن المصرى القديم جلست فلاحة جلسة الكاتب المصرى ، ووقفت الاخرى كحاملات القرابين ، بريشة إدريس افندى .

جولة فى شرقى الدلتا

هناك منطقة باكملها من شرقى الدلتا قد خيم عليها الفقر . عبثا تبحث عن مدينة حديثة واحدة فى هذه الربوع التى مازالت تعرض آثار كثير من المدائن التى كانت عامرة فى القديم . وفى كل يوم تنقرض هناك الزراعة مع من ينقرض من الناس .

استوينا فى مركب شراعى ، وحظينا بهبوب نسيم جنوبى خفيف ، وفر على البحارة عناء التجديف . وبدأنا الرحلة فى جذل ، بين صخب الاغانى المرحة وتصفيق الأيدى التى توقع الألحان مع قرع الدربكة المرتفع .

شـــبرا :

وسرعان ما مررنا بشبرا ، اى بقصر النزهة الذى بناه محمد على . فى حديقة ذلك القصر « كشك » يذكر المرء بخيالات الشرق ، و يجسم امامه منظرا ساحرا من مناظر « الف ليلة وليلة » .

ثم مررنا بعدة قرى لا تقدم للباحث عن الآثار ولا لمحب الاستطلاع اى موضوع شائق ، وإنما تناقض بمظهرها الخرب وفقرها المدقع بذخ الباشا وترف العظماء . إن هذه اللوحة المحزنة التى تجرح بصر المسافر اينما رسا لتضطره فى أكثر الأحيان إلى التفكير فى اسباب هذا البؤس العميق الذى يحصد الشعب المصرى . فلو كانت حسنات الحضارة لا تُشترى إلا بالآلام والحرمان ، لما دفع شعب أفدح من ذلك الثمن نظير هذا الخليط الشائن من الهمجية والمدنية الذى يصدم أعين الرحالة فى مصر .

بنها العسـل :

وإذا تابع المرء مجرى الفرع الشرقى للنيل ـ وكان هذا الفرع يحمل قديما أسماء تختلف باختلاف الاماكن التى يخترقها ـ فإن اول قرية ذات بال يلاحظها هى « بنها العسل » ، التى اشتهرت فى الماضى بحلاوة عسلها وبجمال حدائقها . فمن هناك ، فيما يقول الكتاب العرب ، اخذ المقوقس ما ارسل من عسل ـ مع هدايا اخرى ـ للنبى محمد ، قبل ان يغزو عمرو بن العاص مصر بسنوات قليلة .

تـل أتريب :

وراء « بنها العسل » وإلى الشمال منها بقليل ، يرى الناظر عدة تلال من الأطلال تبين مكان مدينة قديمة . تلك آثار « اتريبيس » التي مازالت تحفظ اسمها قرية واقعة إلى شمالها الشرقي تسمي « اتريب » .

روى لي عامل أوربي التقيت به على تلك التلال انه اثناء تنقيبه فيها بحثا عن أحجار قبل انقضاء عشر سنوات تقريبا ، وجد اسدا من الجرانيت الوردي ، وعدة أعمدة من المرمر الأبيض وبقايا حمام . وقد استخدمت جميع هذه الاثار في بناء مصنع غزل القطن ببنها العسل . غير ان الأسد ، بفضل صلابة مادته ، قد نجا واصبح يزين مدخل ذلك المصنع . حاملا خرطوشة رمسيس الأكبر ، الذى ورد بين ألقابه على هذا التمثال لقب « منتقم مصر ومروض البلاد الاجنبية » .

ميت غمـر وزفتي :

واما ميت غمر وزفتي اللتان نصل إليهما بعد ذلك ، فبلدتان صغيرتان لا أهمية لهما ، تواجه إحداهما الأخرى على ضفتي النيل المتقابلتين . بهما مصانع لغزل القطن ولتحضير النيلة . ويبدو ان هاتين البلدتين حديثتا الإنشاء ، فلا يلقى الجائل فيهما اى جزء قديم . لقد لاحظ الرحالة « ساقارى » في ميت غمر مسجدا يعلوه برج مربع خطر له انه استخدم كنسية للمسيحيين قبل غزو العرب .

غير ان السائر في ارجاء مصر يستطيع اليوم أن يرى عدة مناثر مماثلة ، وليس طراز المسجد في جملته مما عرفه مسيحيو الدولة الرومانية الاخيرة ، بل تلك عمارة عربية خالصة ولكنها ذات طابع بالغ الطرافة يسترعي التفات الفنان .

وتأخذ ضفاف النيل – وهي كثيبة مملة حتى تلك المنطقة – في التزين باضرحة جميلة ، انيقة الشكل ، يتناقض بياضها الناصع سواد اللبن والطين اللذين بنيت بهما البيوت وابراج الحمام العالية في جميع القرى .

بهسبيت :

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من سمنود ، مازال الناظر يستطيع ان يرى بالقرب من قرية بهبيت ، على بعد نصف فرسخ داخل الأرض ، سورا كبيرا

من اللبن يحوط الأطلال الباقية من معبد لإيزيس يمكن للمرء ان يتخيل ابهته ، وإن كان من المحال اليوم أن يتعرف على أسسه . لقد كان مشيدا باكمله من كتل جرانيتية ضخمة الاحجام .

وبينما انا منهمك في رسم نقوش ناووس لإيزيس ، شاهدت احد العمال ، تتبعه امراتان ، وقد اقبل ليريهما الحجر الشهير بحجر « العرايس » ، والذى يعتقد أهل القرى المجاورة ان له القدرة على إزالة عقم النساء . وكانت العروس الشابة التى لم ترزق منذ سنين ولدا تخشى العار الذى يلتصق هنا بالعقم . فقبلت في ورع كل تمثال على ثدييه وعلى بطنه ، لعل تقبيل هذه المواضع اشد اثرا . وقفزت سبع مرات فوق الكتلة ، ثم مضت راضية . إن عبادة الصور لم تندثر تماما بين اهل مصر ، رغم احترامهم للقران واتباعهم ما نص عليه من الفروض اليومية ، فما اطول عمر الأساطير ! .

■ ■ ■

دميـــاط

ترسم دمياط هلالا متسعا على ضفة النيل اليمنى ، عند آخر مرفق يشكله وهو يجرى نحو البحر . ويمتد أمام دمياط سهل فسيح ، تحده شمالا غابة من النخيل ، بينما تنمو وراء المدينة بساتين عديدة مزدهرة بأغنى انواع النبات تخترقها ترع ترويها ، أو تتخللها غدران من الماء يكسو سطحها النيلوفر ، وذلك م‍ـ ‍ـل المدينة عن بحيرة المنزلة .

إن مآذن المساجد الانيقة التى ترتفع فوق النخيل ، ومختلف أعلام الدول التى عينت قناصل لها ، وساريات السفن التجارية ، تخلع على دمياط من بعيد لونا من العظمة والثراء . ولكنك إذا توغلت في الداخل ، تهيبت عند كل خطوة تخطوها ـ كما هو الحال في جميع المدن المصرية الآن ـ أن يسقط عليك طرف من جدار ، أو ان تتداعى واجهة بناء معتمدة على قوائم نخرها الدود ، أو أن تهوى مئذنة قد مالت على الطريق العام .

وإذا عبرت أسواقها الضيقة المعتمة ، حيث تعرض في مواسمها ثمرات الأرض المتنوعة ، قصب السكر والموز والتين والبطيخ والشمام والقلقاس والأرز والقمح والشعير ، بين كمثرى دمشق وتفاحها ، وتبغ صور واللاذقية ، والمشمش اللبناني المجفف ، والسمك المملح ، وصيد البحيرة ، وبلح الصالحية ، وتلك الاوانى الخزفية السوداء الهزيلة التى يصنعها أهل المنطقة ، فسوف ترى في هذه الأسواق على وجه التقريب ما تراه في القاهرة ، وسوف تلاحظ أن الناس يكثرون هنا من استخدام أرغفة الخبز بدلا من النقود في ابتياع المواد الغذائية الزهيدة .

لقد كانت دمياط مدينة عامرة قبل بضع سنين ، ولكنها تتدهور كل يوم ، ولا يزيد عدد سكانها الآن على ١٢٠٠٠ نسمة بما في ذلك ٢٠٠٠ مسيحى معظمهم من المذهب اليونانى . ومازال الجائل في دمياط يلمح آثار بذخها الغابر في بضعة بيوت من الآجر اعتنى أصحابها ببنائها ، تنيرها نوافذ عريضة مسورة ، وأبواب تزخرفها رسوم عربية جميلة .

وليس في دمياط اثر يستحق الذكر . فإن اقدم مساجدها وهو مسجد ابولاتا [ابو المعاطى] ، لا يقدم للباحث سوى كتابات كوفية بالية ،

وخطة معمارية طريفة من حيث توزيعها الغريب لنيف ومائة عمود مختلفة المواد ، فبعضها من المرمر ، وبعضها من الجرانيت وبعضها من « البروفير » الأحمر تتنافر اشكالها بقدر ما تتنافر الوانها ، وتحمل أقواسا خبيئة تتكيء عليها أخشاب السقف .

لقد دأب الناس على التكسير من الأعمدة المرمرية والحفر فيها وهناك المسلمون والمسيحيون ممن ينسبون إليها قدرة إعجازية على أمور معينة ، ويشربون نقيع شيء من هذا المرمر بعد سحقه . وبلغ من تخريب تلك الاعمدة أن بعضها لا يكاد يقف إلا على سن رهيفة يُفزع منظرها عين زائر لا يؤمن بإعجازها وهو يطوف بهذا المسجد المهجور .

■ ■ ■

الأتقيـــاء والماجنـون

دخلت يوما مسجد [ابى لاتا] بدمياط لكى أرسم تيجان الاعمدة ، وهي اثار عتيقة منتزعة من معابد الدولة الرومانية الأخيرة ، فوجدت المسجد مليئا بجمهور صاخب . لقد وافق ذلك اليوم عيد شيخ مبجل هناك بسبب معجزاته العديدة ومدفون بهذا المسجد الذى أصبح يحمل اسمه . وكان ضريحه مزينا بالأسمال وخصل الشعر وبهرج النذور - كما تزين العكاكيز التى تمكن من المشي أصحابها الكسيحون أو تماثيل السيقان والأذرع كنيسة كاثوليكية .

وأخذ الجمهور يتزاحم في صحن المسجد حيث كان الإمام قد شكل حلقة كبيرة احتلت مركزها سارية عالية مزدانة بالأعلام ، فبع تحتها اتقياء يفككون حبات مسابحهم . وألّف غيرهم من ذوى الحمية - بينهم الشيوخ المسنون والرجال والفتيان من جميع الطبقات ، وهم يسيرون وقد اعتمد بعضهم على بعض - محيطاً متحركاً يدور ببطء حول الحلقة الداخلية . ومضت كل حلقة تابعة من تلك السلسلة الكبيرة تهز جسمها هزاً وتهتف بصوت أجوف أجش : الله ! الله ! الله !

كان كل منهم يتكيء بيسراه على من تقدمه ، ويمد يمناه للمتفرجين الذين وقفوا صامتين ، فكوّنوا المحيط الخارجي للدائرة . وكان كل متفرج

حريصا على أن يسند الداثرين ، وأن يقبل في ورع أيدي المتشنجين .
وكان الإمام وبضعة شيوخ قائمين بجوار السارية يصفقون بالأيدى ويصيحون ليضبطوا التوقيع الذى راح قرع الطبول يؤديه أيضا بطريقة أشد صخبا .

وسرت عواطف الحماس والاستنفار ، وانتقلت من شخص إلى شخص عن طريق البصر والسمع واللمس ، فانتشرت كما تنتشر العدوى ، وأدت في وقت قصير إلى دوار عام .

وحينما انتهى بهم التعب إلى التهاوى ، امسك المتهوكون منهم عن الاهتزاز ، وسقطوا وسط الجمهور التقى الذى كان يبادر إلى وضعهم فى الحلقة ، وهناك يقبعون جامدين ، لاهثين ، شاردى الاعين ، فى حال من الفناء والسكون والنشوة هى في نظرهم افضل من جميع خيرات الأرض ، لأنها تصلهم بالجوهر الأبدى ، الذى يأتى نوره إذ ذاك ـ كما يقولون ـ فيملأ نفوسهم .

لبثت وقتا طويلا اتأمل هذا المشهد . كان فى الأزياء المتنوعة الغريبة التى ارتداها هؤلاء المشحونون بالارواح ، كان فى خليط ملابسهم ، وفى تعبير عيونهم ، وفى التشنجات التى اخذت تغير ملامح وجوههم ، كان فى هذه اللوحة باجمعها طابع من التشيع والدوار المقدس اثار رعبى .

ويطلقون على هذا النوع من التمثيل الدينى اسم « الذكر » أى إحياء ذكر الله ، والأولياء إلخ . وهى حفلات تقام فى مناسبات مختلفة ، لشخص أو لجماعة ، بغية الحصول من الله على نعمة ما أو للاتصال بذاته .

وقديما دفع داود وحىٌ مُشابه إلى الرقص امام التابوت المقدس .

واما محترفو التقوى ممن يستغلون الدين دائما فى خدمة اغراض الدنيا فيقيمون الذكر لإسقاط غريم ، ولاستنزال المرض على منافس ، أو الموت على عدو . ويوجد كتاب عربى عنوانه « جلجوتية » يعلّم الصوم والصلاة وجميع الطرق التى تستعمل فى « الذكر » ليكون قوى المفعول .

وبعد أن خرجت من المسجد ، توجهت نحو الأضرحة التى تحيط به ، حيث اتصل الاحتفال بالعيد فى أسلوب آخر . هناك كان ينتظرنى مشهد جديد . كانت تلك الجبانة بأسرها تكسوها الخيام والمقاهى والمتاجر المتنقلة . فهنا راقصات ومشعوذون يسحرون شبابا شرها ، وهناك

اراجيح تمرح فوقها الطفولة اللاهية .

واْدنوا من جماعة يبدو لى انها اشد ابتهاجا وصخبا مما عداها . فقد كان جمهور غفير يتزاحم في دائرة حول قرد غليظ قد أحكم تكميمه ومضى يلعب مع غلام صغير . وبعد دورات عديدة من الكر والفر . وحركات كثيرة متنوعة ، استولى ذلك الحيوان الشهوانى على الغلام وانهال عليه بدعابات مخلة بالحياء وسط التهليل العام .

هذا الفجور المنفر لم ينقصه شيء ، ولم يدخل عليه اى تخفيف شكلي ، ولا يستطيع غير المجتى عليه أن يقول هل وقعت الفعلة الفاحشة توقيعا تاما . وكان جميع المتفرجين يصفقون ، بل واجترات نساء على أن تشهد مثل تلك المخازى ، ومن بينهن أمهات ممسكات ببناتهن ! .

* * *

كنت قد رأيت في المسجد شبانا ينتهلون من الدين نفسه إفراطا حرمه الدين ، فقد قيَّحت الخرافات والتشيع امخاخهم الفتية بمرض عضال ، ورأيت في الخارج فتيات يتلذذن بمناظر الدعارة حيث ياتين ليفقدن عذراوية قلوبهن التى لا يعيرها الشرقيون من الاهتمام ما يعيرون عذراوية اجسامهن .

ويمكن لهاتين اللوحتين المتقاربتين اشد التقارب أن تعطياكم فكرة عن الاخلاق والتربية هنا . إن الحكومة تترك مثل هذا الفساد قائما وتتباهى بما ادخلت من إصلاحات في الدولة !

وانحدر النهار ، وذَهَّبَتْ اخر اشعة الشمس قمم الأضرحة وشواهدها ، فعرجت على المسجد ودخلته وسط خضم من الناس لالقي نظرة أخيرة على الرقصة المقدسة .

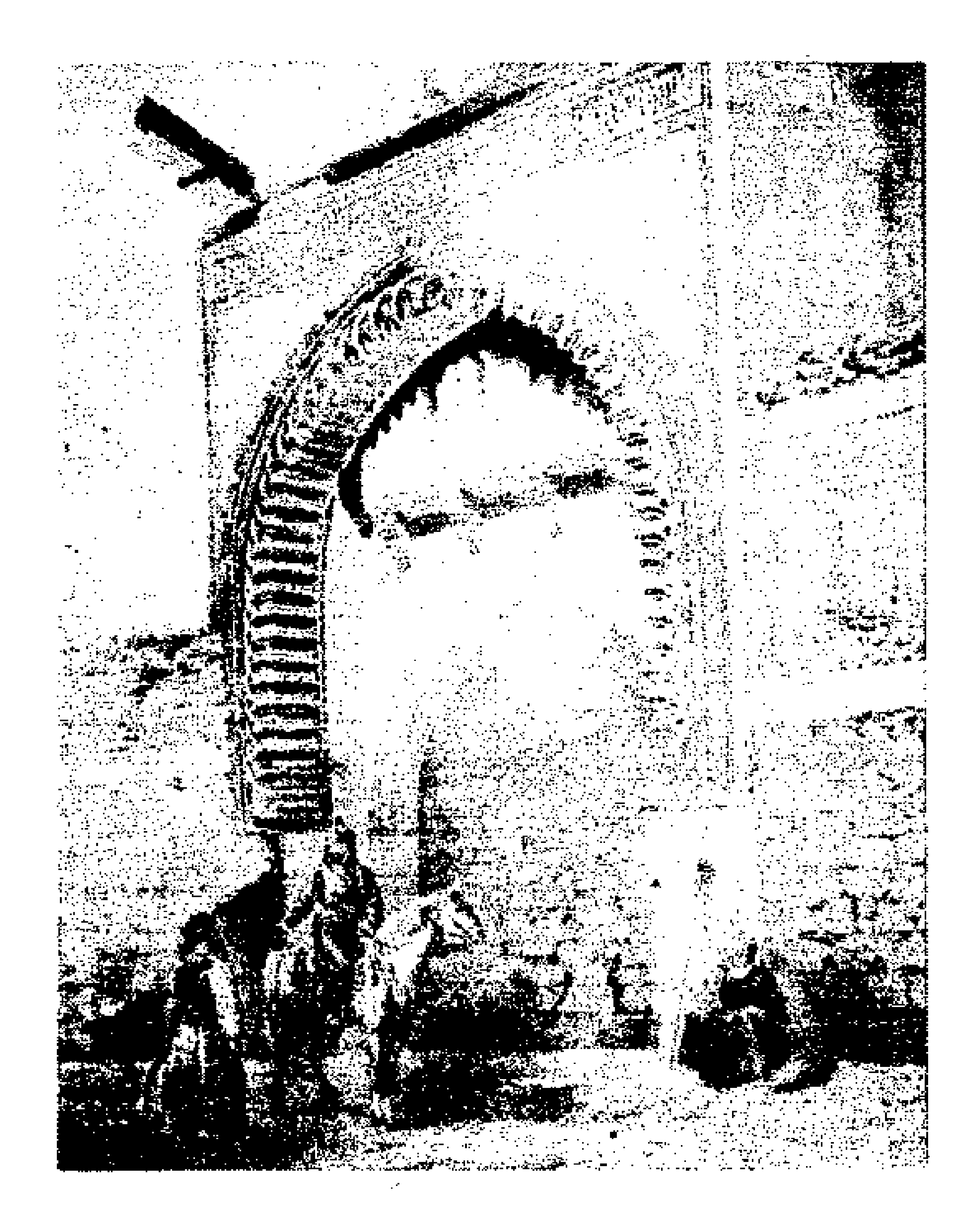
كان الجمهور قد ازداد عددا ، فقد انضم إليه جميع العمال بعد أن فرغوا من شغل اليوم . وجدت نفس الصخب ، ونفس الاختلاط ، ونفس الاحتشاد ، ولكن اللوحة قد أمست خلابة رائعة . فإلى تلك السارية المزينة بالرايات شدت حبال طويلة كالحبال التى تشد سفينة راسية ، وتدلت من تلك الحبال عقود من المصابيح الملونة بهرجت المنظر باضواء متنوعة السطوع . وبدلا من تلك الحلقة الكبيرة التى كانت تدور حول السارية ، رايت حلقة خاوية راح جميع من كانوا يشكلون محيطها يتحركون ، كل فرد على حدة ، مميلا أعلى جذعه إلى اليمين وإلى اليسار

ثم إلى الامام ، وهو يصيح دائما : الله ! وكان من يسقط منتشيا يظل في وسط الحلقة او ينسحب بعيدا ليستمتع كما يروقه بتلك السعادة .

وبعد استراحة دامت لحظات قصيرة ، تغير المنظر ايضا . فقد جلس أكبر القوم جلالا وتقوى في أسفل السارية ، واحاط بهم المتفرجون ، تاركين بين كتلتيهم فضاء صغيرا . ولم تلبث حتى انطلقت صيحات فرح تشبه زغاريد النساء المديدة ، رد عليها الاتقياء ، وإذا بثلاث فرق من الرجال ، رؤوسهم كاسية بحجاب طويل ، واجسامهم عارية إلا من إزار ابيض ، يدخلون الحلقة دون أن ندرى من اين اقبلوا ، ثم يجتمعون ويسفرون عن وجوههم ويؤلفون سلسلة جديدة . وكان كل شخص يحمل بكلتا يديه جرة صغيرة من جرار الدراويش ، ويقفز وهو مقوس الجسم مقدما ساقه اليمنى إلى اليسار قليلا ليدور على قدمه هذه ثم على قدمه الاخرى بالمثل ، وتلك حركة تشبه الخطوة الماسونية . كانوا يؤدونها وهم يرددون الهتاف الابدى : الله ! وبدا انهم يقدمون الماء لكل امرىء ، ولكنهم ظلوا يرفضون إجابة سؤال الحاضرين ، ولم يوافقوا على توزيع الماء إلا بعد قيامهم بدورات عديدة .

واتصل المشهد . في اضواء المصابيح الملونة وضوء القمر الذى طلع إذ ذاك . وكان السكون ، وكانت الوجوه المطمئنة الخاشعة في ذلك المجلس ، وكان تنوع الازياء ، وذلك السِّرّى الغامض الرمزى ، وكانت تلك البوابات الخربة ، وهذه المئذنة الشاهقة القائمة كصنم معبود ، كان كل ذلك يضفي على تلك اللوحة الجديرة بريشة « رامبرانت » ، طابعا قاتما وطريفا لن تجد له نظيرا في غير ذلك المكان .

■ ■ ■



قارس أمام مسجد الظاهر بيبرس فى القرن التاسع عشر عن كتاب الفن العربى لإدريس أفندى .

سوري في تاريخ دمياط الحديث

كانت دمياط تتمتع ، قبل انقضاء بضعة اعوام ، باهمية تجارية هي التي منحتها الشهرة والثروة . فحرية البناء فيها ، ومصنع غزل القطن ، ومصانع النسيج ، وكثرة السلع التي تستوردها من سوريا ، ومزارع ارزها الشاسعة بوجه خاص ، كانت تجعل منها إحدى مدن مصر الرئيسية ولكنها الآن في ركود نتيجة للاحتكار الذي تمارسه الاسكندرية . ومازالت دمياط مستودع أرز الدلتا ، يضربونه فيها ويبيضونه ، غير انهم لا يبيعونه . فعلى أهل دمياط ان يشتروا الارز من الاسكندرية .

لقد قُدر للاسكندرية فيما يبدو أن تصبح المتجر العام لمصر ، فجميع السفن ملزمة بان تقضي فيها مدة الحجر الصحي ، حيث تجد ميناءً امنا ، كما يلوح ان جميع تجارة سوريا تريد ان تتجه هذه الوجهة الجديدة . ويروى أهل البلد ان تدهور دمياط قد بدا منذ وفاة « باسيلي فخر » ، وهو مسيحي سوري كان اول تجار المدينة .

وينبغي ان اذكر لكم شيئا عن هذا الرجل الذي يُعد بين اعلام مصر الحديثة . اخذ ابوه « حنا فخر » التزام جمرك دمياط في عهد علي بك الكبير ، وسرعان ما اثرى . وفيما بعد ، ضمنت له المكاسب التي جلبها للحكومة مكانة لدى « علي بك » وضعت كل شيء تحت سلطته .

وورث باسيلي فخر تلك الوظيفة عن ابيه ، واحسن القيام بها ، فجمع منزلة ابيه ونفوذه ، بل وزاد ثروته الشخصية . وعينه عدة قناصل عميلا لهم في دمياط ، واثناء الحملة الفرنسية ادى بعض الخدمات ، وانقذ حياة عدة فرنسيين ساعة رحيلهم ، مما عاد عليه بعد ذلك بوسام « جوقة الشرف » .

وفي عهد محمد علي ، الذي عرف كيف يقدره ، اصبح باسيلي فخر اول شخصية في المدينة . وكانت كل السفن المصرية التي ترسو في الميناء ملكا له ، بل كانت التجارة باسرها بين يديه . وإذا كان لا يحكم المدينة فذلك لان الإمرة لا تسند لمسيحي ، ولكن الحاكم والقاضي كانا بلا انقطاع في ديوانه العامر بالناس دائما . وقد توقف هذا الرخاء حينما نشبت ثورة اليونان ، فقد اصيبت ثروته بخسائر جسيمة ، ولم تكد تجارته التي كانت رائجة فيما مضى ان تفي بمصروفاته إلا في عسر .

* * *

وكان « فخر » يتكلم بطلاقة العربية والتركية واليونانية والإيطالية ويندهش المرء إذ يحاول أن يعرف كيف استطاع ، مع العناية بتجارته وأعماله . وحياته في هذا الركن من العالم بعيدا عن وسائل التثقيف ، أن يجد متسعا من الوقت ليتعلم جميع تلك اللغات ويشتغل بآدابها . وكان يفهم الفرنسية فهما يتيح له أن يترجم كتبها . وقد تعلم الرياضة في كتب موضوعة بهذه اللغة .

رأيت في مكتبته التي تضم أفضل المؤلفات الفرنسية وعددا كبيرا من الكتب العربية والتركية واليونانية مخطوط ترجمة لكتاب فولني « الأطلال » ومختارات وافية من « وصف السماء » لفرانكور مترجمة إلى العربية ، وبعض الفصول عن تاريخ مصر القديمة مما كتب المؤلفون المصريون . واطلعت كذلك على مجموعة من رسائل « باسيلي فخر » إلى عدد من أساقفة الشام والبطاركة تتناول أهم الموضوعات الدينية . إنك لترى أي الدراسات كان يؤثرها « فخر » ، وإنك لتقدر أي ثورة في الأذهان كان خليقا بأن يحدثها نشر تلك المخطوطات .

ولكن للأسف عاد « باسيلي فخر » في السنوات الأخيرة من حياته إلى جميع أوهام الأدباء الشرقيين ، فراح يشتغل بالسحر ، وكست تعليقاته كثيرا من كتب التنجيم . واستدرجته علوم الغيب إلى دراسة الهيروغليفية ، فانكب عليها بحماس ، لا ليبحث عن تاريخ حضارة المصريين القدماء ، بل ليكشف الأسرار التي أراد الإله « هرمس » أن يستودعها الخلف عن طريق لغة جامعة .

وكانت دار « باسيلي فخر » - وهي أجمل دور دمياط وأكثرها بذخا - مفتوحة لجميع الوافدين من جميع أنحاء الأرض ، ولا سيما الأوربيين الذين كان يحب عشرتهم . وما زال أهل دمياط يتحدثون عن كرم ضيافته ، وما أدى من خدمات عديدة . وقبل موته بلحظات قليلة - وقد توفي منذ بضع سنوات - قال للقسوس الذين أقبلوا يحملون إليه آخر الفروض :

— لا حاجة بي إلى وسطاء يتشفعون لي لدى كائن عادل طيب يعرف أبعد ما تكنه أفكاري خيرا مما أتذكره . دعوني أغادر هذه الدنيا كما عشت فيها .

■ ■ ■

من ذكرياتي في الأقصر

بعد ان القيت نظرة سريعة على اهم معالم مصر العليا والنوبة السفلى رجعت إلى « طيبة » حيث كنت اريد ان استقر لكي أدرس الآثار واقوم على مهل برحلات مختلفة في وادي النيل وفي الصحراوين اللتين تمنطقانه بحزام من الرمل والجبال الماحلة .

وبدا لي المقام في الاقصر افضل منه في اية قرية اخرى من القرى الرابضة بين أطلال العاصمة الفرعونية ، وقررت أن انزل في المسكن الذي شيده البحارة الفرنسيون الذين كلفوا بان ينقلوا إلى باريس المسلة التي تحلى اليوم ميدان « الكونكورد » .

وكان ذلك المنزل المتواضع المبني باللبن فوق طنف قصر « امونوبوليس » اشمل المنازل راحة ، فقد كان المرء يشرف منه على منظر رائع ، ويحظى فيه بنسمات النهر اللينة ، وينتقل منه وإليه بمواصلات ناجزة ميسرة ، ويجد بعد هذا كله في القرية ما يكفل حاجات الحياة اللازمة .

وسرعان ما تم استقراري بفضل قلة الاثاث الذي يتطلبه بيت عربي ، فببعض البسط والنمارق والحصر كان لي أفخر ديوان هناك . وكان اثاث غرفتي يتالف من مائدة وكرسيين اخذتهما من قاربي ، وبعض الكتب صففتها على الواح من خشب الجميز منزوعة من تابوت مومياء ، وخريطة معلقة على الحائط بين اسلحتي التي اصطحبها في رحلاتي وأدوات الصيد ، وسرير من الجريد تعلوه كلة . وهكذا كان لي في غرفتين ما يفي بمقتضيات الحياة العامة ولوازم الدرس والحياة الخاصة .

وكنت قد استقررت باسمي العربي الذي أطلق عليّ عندما دخلت في خدمة محمد علي والذي احتفظت به أثناء الرحلة كما احتفظت بزي النظام ، لما كانا ييسران لي من وسائل الحياة دون سبة بين المسلمين الذين كانوا يحيطونني والذين كنت أعرف من لغتهم وأخلاقهم ما يلافي أن أجرح شعورهم ومعتقداتهم .

وكان مجتمعي العربي المعتاد يتالف من ناظر قسم الاقصر ومن قاضي القرية وكنت اتحدث معهما في كل شيء واستقي منهما تاريخ الاقليم ونظام إدارته في عهد ما عاصراه من الحكومات التي اختلفت عليه

وكان مجتمعي الأوربي مركزا في شخص يوناني يقيم على الضفة الأخرى بين المقابر المصرية ، حيث كان يعيش من تجارة الآثار ومن غلة بعض الأراضي التي كان يستخدم في زراعتها عددا من الفلاحين أسعدهم أن ينجو تحت حمايته من أتاوات الشيوخ . وكان هذا الرجل الطيب واسمه « تراياندافيلو » ، قد ضحى بكل شيء في سبيل استقلال بلاده وبعد أن فنى ماله في سبيل ذلك الكفاح ، حضر إلى مصر تحت ضغط الأحداث واضطر إلى البقاء بها ، ويتحدث دائما عن رغبته في العودة إلى وطنه ولكنه يجد الاطمئنان في خلوته الهادئة فلا يغادرها حتى يموت .

وكان قد حط في « طيبة » لإدارة حفائر مستر « سولت » ثم واصل التنقيب لحسابه الخاص اذ توفي القنصل الانجليزي واكتسب هو من طول الخبرة معرفة بالأرض تؤهله أن يحدد لك مكان جميع آثار طيبة التي بيعت في أوربا منذ أربعين سنة . وكان بفضل مقامه الطويل وتجاربه وما أتيح له أن يؤدي من خدمات للرحالة ، على صلة بجميع من اشتهروا في العلم ، فكان حديثه ينبيء دائما بتفاصيل مفيدة . ومقابل المعلومات الخاصة بالآثار أو النوادر التي كان يرويها لي ، كنت أمده بأخبار أوربا وأحدثه عن عجائب حضارتها . وكثيرا ما كان يأتي لزيارتي حين كانت دراساتي تجذبني إلى الضفة الأخرى بين المقابر الفرعونية ، وكان يسرني أن أتقبل بدوري كرم ضيافته .

ولما كانت الحاجة قد اضطرته إلى التقتير فقد كان يعيش وحيدا كالراهب ، يحوك ثيابه بنفسه ، ويعد طعامه بنفسه ، ويصوم كل صوم في المذهب اليوناني ويقرأ كتابه المقدس بانتظام ، غير متخذ بعد ذلك من تسلية إلا قراءة « هومير » أو « هيرودوت » ، وبعض الصحف التي كان يرسلها إليه مراسله . لقد صالحني هذا الرجل الطيب القلب ، الخدوم البصير بالأمور والناصح في حكمه ، صالحني مع أبناء جنسه الذين يتعلم المرء بلا انقطاع أن يحتقرهم أينما رحل في حوض البحر الأبيض المتوسط .

وإلى جانب هذه العشرة الثابتة ، كان يقبل من وقت إلى آخر الرحالة الذين كان يجذبهم إلى هذا الربع من مصر العليا حبهم للاستطلاع أو الدرس أو علاج ما أصابهم من داء أو الاشتغال بالتجارة ، والذين كانوا كالطير العابرة لا يخلفون إلا أسمهم وبعض أنباء البلاد التي أقبلوا منها .

ولكن بعضهم كان يقيم أمدا يقصر او يطول بين هذه الآثار ، يحفزهم من الدوافع ما استبقاني هناك . من هؤلاء الرواد من مات قبل أن يستطيع إدراج اسمه في سجلات العلم ومنهم من عجز أن يطلع على العالم بثمرة لعلمه ، فهو ميت رغم حياته ميتة ليست أقل إثارة للأسف .

وكان مجتمعي الشرقي ، باستثناء بعض الأشخاص ، متنوعا كمجتمعي الأوربي . فقد كان كبار الموظفين الذين يجيئون للتفتيش على الاقليم يلتمسون في أكثر الأحيان في المنزل الفرنسي مسكنا أرق هواء واضمن للراحة من المقام في مركب على النيل او تحت خيمة .

بين هؤلاء الضيوف العابرين كان « خليل افندى » حاكم المديرية ، وقد اتصلت به اتصالا وثيقا ، وعادت على صداقته بتقدير سكان المنطقة واعتبارهم ، وكثيرا ما كنت ادافع عن قضاياهم امام محكمته . وكان خليل افندى قويم النفس عادلا ، متدينا دون تعصب ولياً نزيها ، يتحلى بصفات عالية لم يكن احد يفطن إليها في المنصب المتواضع الذى كان يشغله .

وفي تلك الفترة اقبل « ماهوبك » أحد أصدقاء الباشا ، احد الذين زاملوه في حمل السلاح منذ الحملة الفرنسية ، فانفق في الاقصر ثلاثة أشهر لتنشيط إرسال محصول القمح إلى بلاد العرب . وأراد أن ينزل في البيت الفرنسي ، ولكنه إذ علم انني أحتل اجمل غرفتين فيه وانني غير مستعد للنزول عنهما لاى شخص كان .. ارسل فرجانى أن اذهب لأقابله .

دعوة يوجهها لك « ماهوبك » كان معناها أمر صدر لك وعليك ان تصدع به . لذلك لم يستطع المملوك الذى جاء يرجونى باسم سيده ان أمضى لزيارته تصديق ما رأى من رفضى . لقد أجبته بوضوح أن « البك » إذا كان يريد لقائى فهو يستطيع أن يتجشم عناء المجيء عندى . وتكررت الدعوة ، وتكرر الرفض .

وحمل إلى الدعوة في اليوم التالى « الأب ترياندافيلو » الذى حدثنى عن صديق محمد على في عبارات شديدة الإطراء . ولما علمت أن « البك » كان مريضا وأعرج يتعبه صعود درجات سلمي الشاقة ، قبلت دعوته منبئا إياه بالأسباب التى حدتنى إلى اتخاذ قرارى الجديد . واستقبلني « ماهوبك » بحفاوة شرقية واستبقاني للعشاء واطال السهرة للتحدث في التاريخ والسياسة .

وفي اليوم التالى ، بعد راحة القيلولة ، وريثما كان الخدم ينصبون خيمته ، رد « البك » الزيارة ، مريدا أن يرى الاعمال التى تستبقيني هكذا

وسط الفلاحين والأحجار ، محروما من كل وسائل الراحة التي توفرها الحياة الأوروبية . وباستعراض رسومي ، فهم كيف يمكن إعطاء فكرة واضحة صحيحة عن أهل وأشياء بلد من البلاد إلى أولئك الذين لم تتح لهم سبل الرحلة . ثم حط الحوار ـ كما حط في الأمس ـ على حديث فرنسا وانجلترا وروسيا الذى كان شغل الأتراك الشاغل إذ ذاك كما هو اليوم

وبعد سفره علمت أن خازنداره قد منح خدمي كيسا (١٢٥ فرنكا) وكان « ماهوبك » لا يزال يتبع التقاليد الشرقية العتيقة ، فتعلل بأنني ضيف محمد علي وبالتالي ضيفه هو وأرسل لي صندوقين من أجود أنبذة فرنسا وآخر من المربى والحلوى التركية .

وأثناء مقامه أمضى النظر في رسومي وفي أبحاثي مرارا بالحديث إلى ذكر أبهة المصريين القدماء وقوتهم . فرغب في معرفتهم ، وراق لهذا الرجل الذى طالما مر أمام آثار الوثنيين مبتسما في إشفاق واحتقار أن يتأملها بانتباه . وكوفئت سخرتي في مرافقته مرافقة الدليل ، فقد عادت على العالم بحفظ مدخل هيكل الكرنك الذى أمر الباشا باستغلاله في تشييد معامل البارود بالمنطقة . وإجابة لرجائي أمر « ماهوبك » بالبحث عن مواد البناء في غير ذلك المكان وأنقذ الكرنك من تحطيم وشيك .

وكنت أنفق جميع سهراتي تقريبا في صحبة هذا الرجل الطيب طيلة مقامه بالأقصر . وكان في النهار بعد تصريف الشئون يسأل قارئا أن يقرأ له « سيرة نابليون وحملاته » وهو كتاب كان قد ترجم أخيرا إلى اللغة التركية بأمر الباشا وكذلك كتاب الأمير « لمكيافيلي » . فإذا حان المساء وجبت مناقشة ما جاء بهذين الكتابين ، فمن تتبع مسير الامبراطور على الأطلس إلى الإجابة عن أسئلة طويلة ، مع عدم التردد في أى جواب لكي لا تفقد في نظر أمثاله قدر ما أوتيت من علم على قلته . وكان ينبغي أن تستطيع في الحال ذكر عدد سكان الامبراطورية الروسية بكل دقة وعدد رجال جيشها ومبلغ دخلها وحدود أرضها . وكان ينبغي أن تقول ـ دون أن يبدو عليك الاضطراب ـ كم تبعد الشمس عن الأرض ، وما سرعة الصاعقة أو سرعة قذيفة المدفع ، وكيف كان زى جنود الإسكندر ، ولماذا لم يستخدموا البخار بدل البارود ، أو لماذا لا تتصل الحركة اتصالا دائما ، وما السر في عدم وجود حجر الفلاسفة .. موجز القول انه لم يكن لك بد من أن تملك معرفة موسوعية حتى ترضى جميع الأسئلة التى تثور أثناء الحديث .

وفضلا عن رغبته في التثقيف كان « البك » سديد الراى كبير الحيدة والتسامح ، ذا نظرات شخصية في الامور تخلع عليها مظهرا جديدا مما كان يعوض جليسه بعض الشيء عن ملل تلك السهرات الجارية على وتيرة واحدة والتي كثيرا ما كان يختتمها بسؤالي عما إذا كان الله قد وضع حدودا لذكاء الإنسان .

واما في اسلوب الحكم والإدارة فقد كان « ماهوبك » يتبع اخطاء مولاه الذي كان معجبا به إعجابا حقيقيا . لقد أطلق في المهمة التي جاء ليقوم بها في الصعيد كل الشدة التي يفرط في استخدامها عمال الباشا . وقلما كان يلجأ إلي العقاب بالضرب ، ولكن الناس كانت تعلم انه يعاقب بالقتل دون مراجعة فكان الجميع يرتعدون أمامه .

ولقد اعطتني علاقاتي تلك بماهوبك وكذلك علاقاتي بخليل افندى حاكم الاقليم منزلة عندهما كنت استخدمها في سعة إذا استدعى الامر ان يحترم العادون حقوقنا .

■ ■ ■

337

Chants funéraires

الخيل يا خياله والعدا يا وراده وانا سجيع ومانع ماجا بنو اولاده يا مهوة يا ام قرنفل
شرابك فين شرابي على الطيارة يا هوارة يا دنيا يا غضارة ودبيبه فين
اليوم الله كلها لله والله الفراق صعيب عاملة اسم الله على المنصور وشبابه من رقدت
العيان وقرايبه اسم الله على المنصور ومثيله من رقدت العيان ورديه ——
يا خشوا اقاعد على كرسيها مستنيا سيدها يقطع فتاويها يا خشوا اقاعدة على الكرسي
مستنيا سيدها لما يجي ويغني — قالولنا حاكم البلد عزلوه هدوا وطاقة وعكره دلوه
قالولنا حاكم البلد رحلوا هدوا وطاقة وعكره نزلوا ——
ليت المصلي ما يصلي اليوم هم صلاته واتكى للنوم ليت المصلي ما يصلي ابدا هم صلاته
واتكى رقده ادوا المصلي الاربع والسبحة يصلي صلاة العصر والجمعة ——
دم الدبيحة راح وخلاها جابوا سريتحيل دلاها دم الدبيحة راح وهلها جابوا
سريتحيل نزلها — قايت على الحداد نصف الليل مزاريق عايق دقها له زين
يا مهوجي فاتني عليك عايق عوده مخشش يضرب على الرايق يا مهوجي فاتني عليك .
قلبي عوده مخشش والبلبله دهبي

رثـــاء

(صفحة من وثائق إدريس افندى عن الأقصر)

الفـــــلاح

الزارع المصرى طويل القامة ، قوى البنية ، متناسب الجسم ، منتظم التقاطيع صحيحها . تتوقد بالحياة عيناه السوداوان الغائرتـان في محجريهما والمرتفعتان بعض الارتفاع نحو الجبين ، وقد تعبران تعبيرا وحشيا لولا الأهداب الطويلة التي تلطف من قدحهما . وهو قوى الشفتين ، جميل الأسنان ، ينتهى وجهه البيضاوى المستطيل بلحية سوداء مجعدة غير كثيفة . وفلاحو مصر العليا نحاسيو البشرة جفاة الطبع صفراويو المزاج ، اما فلاحو الدلتا فانصع بشرة بكثير وذوو مزاج لمفاوى .

وفى مظهر الفلاحة وملامحها يجد المرء تشابها كبيرا بين شعب مصر الحالي والصور المنحوتة على الآثار القديمة . فكما تبدو لك تماثيل إيزيس ، تبدو لك مصريات اليوم . وهذا التشابه الذى لا جدال فيه يؤدى إلى استنتاجين طريفين ، أولهما يتعلق بالفن ويمكن استخدامه عند الحاجة مقياسا للحكم على ثمرات العبقرية المصرية ، وثانيهما ينتمى إلى العلم ويؤيد ما ذهبنا إليه آنفا من أثر المناخ فى العادات .

اما عن النحت فنستطيع ان نشهد بان الفنانين فى عصر الفراعنة كانوا يستوحون الطبيعة مباشرة ، ويجيدون استيحاءها فيما نراه فى مصر من نماذج مانحتوا من تماثيل الآلهة . واما عن العلم فنستطيع أن نقول إن تشابه نساء مصر القديمة ومصر الحديثة بعد امتزاج الدم الأصلى مرارا متعاقبة ، يؤيد الراى الذى يرد ظهور الصفات الثانوية أى الانواع الناشئة عن كل كتلة إلى الظروف الخارجية التى تحوط جنسا من الأجناس .

على أن جمال الفلاحة أقل دقة وامتيازا من جمال الفلاح ، ونظرتها اقل من نظرته ذكاء وعمقا ، وان كان وجهها حسن التقاطيع مشرقا حيا كوجهه . وسحر الفلاحة قبل كل شيء فى رقتها الحلوة . وهى طويلة القامة رشيقة مرنة ، خفيفة المشية حثيثة الخطى . ولكنها إذ تتزوج عادة فى الثالثة عشرة من عمرها ، لا تكاد تبلغ الخامسة والعشرين حتى تزوى نضرتها من اتعاب الأمومة ومعاناة البؤس .

من ذا الذى يصدق ان من هؤلاء الأزواج الحسنى الملامح ، الوسام الطلعة يولد ابناء ضعاف مهزولون كسيحون ، دميمو الوجوه رهيفو الأطراف منتفشو البطون ـ مخلوقات تعسة تهلك غالبيتها الكبرى قبل أن تتم العام الأول من حياتها .

ينبغي التماس أسباب هذا الشذوذ فيما اجتمع على الفلاح من الفقر والقذارة والمعتقدات الفاسدة . لن يرى الناظر شيئا أقبح من هؤلاء الأطفال العراة الذين لم يغسلوا وجوههم في حياتهم قط وقد حاصر الذباب جفونهم . وإذا أضفت إلى الأسباب الرئيسية ما يعتقد الفلاح من خرافات يطبقها ويستعين بها لشفاء ابنائه أو لوقايتهم من كل اذى ، وضحت لك علة الموت الذى يحصد تلك النسبة الهائلة من الشعب الزارع . ويواصل من بقي منهم على الأرض حياة مريضة حتى سن المراهقة ، وفجأة ، دون فترة انتقال تقريبا ، ترى أولئك الصغار الدميمين قد أصبحوا رجالا وساما وفتيات حسناوات !.

وان من انشط العوامل المؤثرة في الأطفال نظام التغذية . ولما كان الفلاحون جهلة وفقراء ، فليس في وسعهم الحصول على غذاء صحى مقو . ويكاد غذاؤهم باكمله ان يكون نباتيا . فهو يتالف من قليل من خبز الذرة ، غير مختمر وسيىء النضج ، ومن الفول المسلوق ، والكوسة ، واللفت والتمر والغض من الاعشاب . ويضيفون إلى ذلك من المواد الحيوانية شيئا من الجبن غير الدسم ، وقليلا من السمك وفي النادر جدا قطعة من اللحم ، ولكنها تكون في هذه الحالة فاسدة وأضر بالصحة من عدمها .

والشراب الوحيد الذى يتناوله الفلاح ـ ولو كان ميسور الحال هو ماء النيل ، وفي القرى النائية عن النهر يأسن هذا الماء في قاع الحفر التي لا تطهر ابدا فلا يقل غضاضة عنه فتكا بالبدن .

وليس لأسرة الزارع من ترف إلا تدخين « الجوزة » واحتساء القهوة . فالفلاح يدخن دائما تبغا محليا لم يجتز إلا تقطيعا بسيطا ، ذا عطر عذب جدا . والتدخين ـ كما هو شان كثير من عامة الشعب في أوربا ـ يسكره ويقويه في آن واحد . وأما القهوة التى يشربها الفلاح ، فهى مركزة وبلا سكر ، فتنتج آثارا من نفس النوع ، إنها تمنح أولئك البائسين القوة التي لا يستمدونها من أغذيتهم .

ومنذ يظن الزارع العربي انه ضمن لأسرته ما يقيم الأود ، يهوى من جديد إلى الخمول الأكمل ويعمل اقل ما يستطيع ان يعمل . وهكذا نراه تارة نشيطا لا تقعد له همة ، يخوض الوحل او يظل في الماء ليل نهار ، في سبيل تلك الكسرة اللازمة من الخبز ، حتى إذا حصد المحصول تراه في سكون شامل لا يتحرك أياما بتمامها ، قابعا تحت نخلته يدخن « جوزته » الابدية . هناك الماشية في الطين والبيت في حاجة إلى ترميم ، والرجل وزوجته وعياله بلا ثياب يرتدونها ، بل والخبز غير كاف لهم فهم صفر الوجوه هزيلو الاجسام ، ولكن الفلاح مع هذا كله لا يعمل إلا بالتهديد أو إذا ضربه عمال السلطة العليا .

ورغم الركود الذى ينفق فيه الفلاح حياته عن عمد ، فإنه في الريف اشد حياة منه خمولا ، واقرب إلى المرح منه إلى الجد . يخاطبك محركا يديه في قوة بإشارات معبرة ، ويحدثك متلفظا بلغته الخشنة الشديدة المخارج ، فاللغة العربية في فمه جزلة ، عنيفة الأصوات ، وعرة المقاطع ، على حين انها حلوة موسيقية رقيقة على شفتي صاحبته .

* * *

والفلاحة في الواقع شديدة الصبر عن عاطفة ، خاضعة ، حنون ، وهي تعاون زوجها في عمله الشاق . وإذا حدث أن سجنت السلطة الزوج ، اخذت رضيعها وجاءت عند نافذة السجن تخاطبه وتتلقى اوامره ، ثم تمضى فتنفذها في اشد وفاء . وما اكثر ما تجد التعسة من فرص تتجلى فيها دلائل إخلاصها . فإن الفلاح المصرى ، وقد ابهظته الضرائب ، موضع ضغط موظفي الباشا بلا هواده ، من اعلاهم إلى ادناهم : طالما ملك الفلاح قروشاً طمع فيها هذا او ذاك من طغاة المتسلطين عليه ، واجبروه على دفعها ، غير أن الفلاح يقاوم في إباء ، فيكون « الكرباج » او السجن جزاءه .

ولا يستطيع أى إجراء أن يخلصه من العقاب البدني ، فهو عقاب مباشر ، وكل ما يستطيع أن يناله من تخفيف لا يتجاوز تقليل عدد الضربات التي توقع عليه . واما السجن فالمراة تستطيع ان توجز مدته أو تهون من قسوته ، وفي سبيل ذلك تستخدم جميع ما أوتيت من دهاء في التصرف وبلاغة في القول . ولكسب رضا الشيخ ، تبيع حليها إذا كانت لم تزل تحتفظ بشيء منها ، وتنزل له عن بقرتها أو جاموستها أو حمارها .

* * *

والفلاح وزوجته يعيشان في عذاب متصل : فليس من حد يقف ادعاء الجباة ولا جشع رجال الإدارة واختلاسهم مال الأهالي . انهم قد ينتزعون من أسرة الفلاح غدا ما تركوا لها اليوم . ومهما حسب الفلاح من حساب ، فلن يستطيع تدبير ما يضمن له المستقبل .

إن سعر القطن والنيلة والقمح والأرز المزروعة للحكومة يحدده الباشا كما يريد ، وإذا كان الاحتفاظ بسعر العام الماضي كفيلا برزقهم فمن المؤكد تقريبا أن سعر العام الحالي سينتزع منهم كل كسب سابق .

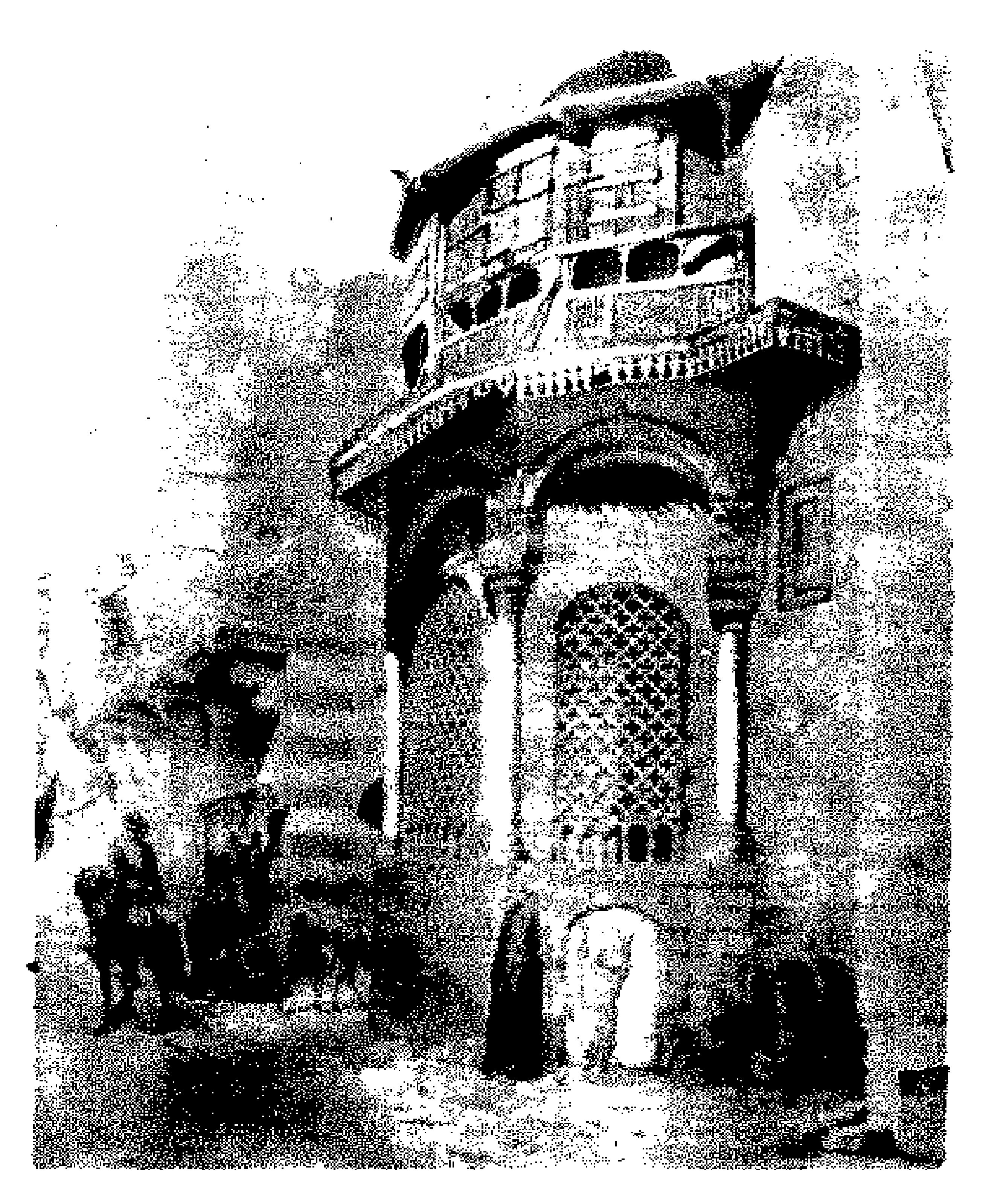
وليس للفلاح إلا ملاذ واحد إزاء ما ينهال عليه من الأذى ، ألا وهو الإذعان للقضاء والقدر . وتلك عاطفة دينية قد تغلغلت في خلق الشرقيين الحاليين حتى ميزتهم بالتساهل والتهاون . إنه نوع من الاحتجاج العليل ينوّم ما أوتيت الهمة الإنسانية من توثب طبيعي ، ويضع محلها نوعا من الشعور السلبي الراكد وتلك فضيلة مشئومة تستتبع الأدواء التي لم تفلح في أن تعالجها إلا علاجا فاسدا .

■ ■ ■



فـــلاح وفـــلاحة :

(بريشة : إدريس افنـدى)



سبيل في شارع أمير الجيوش

بريشة : إدريس افندى

■ الجـــزء الثـــانى ■

من محمد على إلى إسمـــاعيـل



● محمد على باشا ●

محمد علي

صـــــــورته

محمد علي رجل متوسط القامة ، بارز الجبهة ، صغير الفم باسم الشفتين ، غليظ الأنف . وقد تؤلف هذه الملامح في مجموعها خلقة عادية ، ولكن خلقته تمتاز بسرعة التعبير ، وبمزاج متسق من الدهاء والتلطف . ويحوط وجهه إطار من لحية بيضاء جميلة تغطي صدره ايضا ، وهي موضع عناية قصوى . وله يدان كاملتا الحسن ، وذلك لون من الجمال يقدره الشرقيون كثيرا . انه قوى البنية ، انيق الهيئة ، يمشي في حزم وخيلاء ، وفي مشيته شيء من الدقة والنظام العسكرى . وكثيرا ما يعقد يديه وراء ظهره ، فهو يحب أن يتمشى على هذه الصورة في جناحه كما كان يفعل بونابرت .

وقلما يرتدي الباشا ملابس باذخة . كان في الماضي يلبس دائما زى المماليك القدماء ، ولكنه منذ بضع سنوات استبدل بالعمامة العريضة - التي كانت ذات مظهر شرقي نبيل - الطربوش العسكرى ، وبالجيب الفضفاضة الرائعة زى « النظام » . على ان ملابسه من البساطة دائما بحيث ظنه الكثيرون واحدا من حاشية الباشا ، لا الباشا الكبير بذاته .

وتتسم عاداته بطابع الوقار وحسن الالتفات كعادات كبار الاشراف ، وان كان هذا مما يتعلمه ادنى العبيد في الشرق بسرعة بالغة . وهو لا يحيط نفسه بجمهور من الحشم المسلحين كما يفعل سلاطين آسيا ، وإنما يحرس بابه موظف واحد يفتحه لكل قادم . وفي ديوانه يراه القوم لا يحمل سلاحا ، بل يعبث في العادة بعلبة تبغ ثمينة او بالمسبحة التي يصطنعها أهل الشرق .

ويروق للباشا لعب البلياردو والشطرنج والنرد ، وهو لا يهتم إذا لعب باصطفاء خصمه ، بل يختاره من بين صغار ضباطه بل ومن جنوده أحيانا ، ولكن عادته جرت على ان يتخذ خصمه في مباراة البلياردو من بين القناصل والرحالة الاوربيين . وما هكذا يتخيل الناس في أوربا صورة محطم المماليك وقاهر السلطان محمود ومجدد مصر ! .

شخصيته

الوالي شديد الولع بالمجد ، ولذلك يتحدث بكبرياء وشغف عن أيامه الماضية . انه كثير التفكير في البهاء الذى يحيط اسمه أثناء حياته ، ويظن أن هذا الصيت سيعمر بعد موته

وهو حريص على أن تترجم له معظم الصحف الأوروبية ، ويبدو عليه الألم من النقد الهين أو اللاذع الذى كثيرا ما تتناول به الصحف أعماله أو قيمته الشخصية . ويوقن أن مهاجمات الكتاب له قد أساءت إليه شر الإساءة ، ويرد إليهم - إلى حد كبير - ما أصاب آماله من خيبة . وقد روى شخص جدير بالثقة أن « حسين بك » قد سمع محمد علي ينسب معارضة فرنسا وانجلترا لمشروعات استقلاله إلى تأثير جريدة « أزمير » قبل كل شيء ، فقد أطنبت هذه الجريدة في إذاعة هجائه والافتراء على حكومته . وأضاف الباشا قائلا :

— إني لأعطي راضيا مليون ريال في سبيل منع هذه الجريدة من الظهور . وانها غلطة مني هي التي سمحت بوجود هذه الجريدة ، فقد كان محررها تحت تصرفي مدة طويلة ولكني صددته .

وقد سلبته انفعالات حياته السياسية كل راحة . فهو ينام قليلا ، وهيهات أن ينام نوما هادئا . ويسهر إلى جانبيه دائما عبدان ليعيدا عليه غطاءه الذى يدفعه عنه بلا انقطاع .

ورغم قصر الوقت الذى يخصصه للنوم ، فهو دائما في نشاط قلما تجد له نظيرا . في الساعة الرابعة صباحا تراه ناهضا ، واقفا على قدميه ، ليقضي نهاره كله مع نظاره أو مستعرضا فرق الجيش أو مفتشا على أعمال البناء أو أعمال أى مؤسسة يروقه أن يراقب إدارتها .

وهو يجيد الحساب وان لم يكن قد تعلم الحساب قط . ومعروف انه كان قد بلغ الخامسة والاربعين من عمره حين بدأ يسعى إلى تعلم أول مبادىء القراءة والكتابة . ويقال ان جارية من جوارى حريمه علمته حروف الهجاء ، ثم قام شيخ بتعليمه الكتابة . وتلك إحدى الخصائص المميزة لحياته ، وهي جديرة بالذكر حقا إذا فكرنا في المشاغل السياسية الخطيرة التي لابد كانت تستغرق ذهن هذا الرجل .

وهو جذاب في مجالسه الخاصة ، محب للاستطلاع ، تدل أسئلته على جهل ساذج مع إظهارها لكثير من الدهاء والفهم . وفي محادثته احيانا

كلمات موفقة تلقيها بديهة حاضرة . فقد أشاد أحد القناصل ذات يوم بلوحة الرسام « هوراس فرنيه » التى تمثل مذبحة المماليك ، والتى أثارت إعجاب الجميع فى متحف باريس ، فقال الباشا :

— يستطيع الرسام أن يجد نظيرا لموضوعه في مذبحة مماليك بونابرت بمرسيليا .

* * *

عسف الإستبداد

وطبعه مستبد عنيف . ولكنه ـ كجميع الشرقيين تقريبا ـ يستطيع أن يملك نفسه في معظم الأحوال ، وأن يقود الأمور بمهارة إلى الوجهة التى اعتزم بلوغها . وهكذا تجعل منه حدة مزاجه رجلا جسورا مقداما ، كما تجعل منه قدرته على كبح حدته عند الحاجة قائدا ماهرا وتعطيه فن الإمرة حسب الظروف .

وعلى الرغم من سرعة غضبه ، فإن طيبته طبيعية كامنة تحول أحيانا دون توقيع عقابه . وتحمله سماحة قد تبدو لنا لونا من التهاون إلى العفو والرضا بل وإلى نسيان افدح الأخطاء . وقد أملى عليه هذا الميل نحو العدالة والحلم أهم القرارات الإدارية ، الا وهو القرار الذى يَحْرِم الكبراء من الامتياز الصارخ الذى كان يخول لهم معاقبة عبيدهم وتابعيهم بالإعدام . فقد أراد أن يكون ذلك القصاص مصدقا عليه من الوالى قبل تنفيذه ، واضعا بذلك حَكَما بين المتهم والقاضى ، وفترة اجلب للسلامة بين وقوع الذنب وتوقيع الجزاء .

على أن استبداده قد يشتط أحيانا إلى حد عجيب . ونسجل هنا مثلين غريبين لذلك :

من بين النباتات النادرة التي وردت لمحمد على من أوربا ، كان غرس لزهرة الداليا . غرست تلك النبتة في قلب الأرض ، في موضع تغمره أشعة الشمس الساطعة بعيدا عن كشك الباشا الأثير ، فازدهرت وأينعت ، دون أن يتنبه السيد إليها . غير أن أجنبيا تحدث يوما عن جمال تلك الزهرة ، فلاحظ محمد على للمرة الأولى أنها جميلة وأمر بأن توضع النبتة فى صندوق ، وتنقل تحت شجرة الجميز التى تظلل كشكه . وهنا اجترأ البستانى على الاعتراض بأن الزهرة قد تموت من هذه العملية ، فقطب

الوالي جبينه واقسم ليدفنن حيا ذلك الأرعن الذى تذوى على يديه هذه الزهرة التي استاثرت فجاة بإعجابه . وفي اليوم التالي كانت الداليا موضوعة بعناية في صندوق عريض في ظل الا جميزة . ولكن الزهرة ، وقد اعتراها الذبول كانت قد اخذت تميل متراخية على ساقها الطويلة . فجيء بالبُستاني ، وطرح أرضا ، وعلى الرغم من احتجاجه نالته ضربات عديدة بالسوط . فلما لم يسكت عن ترديد قوله بان النبات لا يمكن ان يطيع الأوامر كما يطيعها الناس ، اخلى طرفه .

ومن ضمن اشجار الفاكهة التي وردت من اوروبا كذلك كان نوعان او ثلاثة من شجر البرقوق . اعجبته فاوصى بستانييه ان يعتنوا بها واثمرت إحدى الشجيرات بعض الثمر . وبدا للباشا الذى تابع بشغف نمو هذه الفاكهة أن يتذوق شيئا منها وهي مازالت فجة خضراء ، فوجدها حلوة الطعم ، وامر مدير البستان بان يلتفت التفاتا خاصا إلى ثمرات البرقوق الخمس او الست الباقية . فكان ان احيطت الشجرة بشبكة تمنع الطيور من الوصول إلى تلك الثمرات الثمينة ، ونهض امامها حارس يبذل انشط المراقبة . ولكن ، من نكد الحظ ، ثارت عاصفة من هذه العواصف التى تكثر في مصر وانقضت على محط ذلك الاهتمام الشديد ، فلما انجلت لم يكن على الشجرة إلا برقوقة واحدة ؛ على انها اصبحت ـ نتيجة للتعويض بلا شك ـ من الروعة بحيث كانت تخيل إليك انها استوعبت وحدها جميع العصارات التى كان مقدرا ان تغذى ثمرا وافرا . واخيرا اوشكت « البرقوقة » على النضج ، غير ان الباشا كان قد تغيب لبعض الوقت عن زيارة البستان وكانه نسيه . ومرت الايام دون ان ينبيء شيء بنزهة سامية عن قريب في شبرا . واشتد قلق المدير ، فتداول في الامر مع مرءوسيه ، وتقرر بالإجماع ان الثمرة قد بلغت تمام نضجها وانها إذا لم تقطف باتت في خطر السقوط من غصنها او التلف على الشجرة . خلعوها إذن عن غصنها في احتفال كبير ، ثم غلفوها في رقة بزغب القطن المندوف ، واودعوها في علبة صغيرة ، وختموا العلبة وشيعوها مع رسول خاص إلى سموه . كان ذلك اثناء شهر رمضان ، وكان محمد على ـ على اثر وعكة خفيفة يتناول طعامه في الحريم ، فقدمت إليه البرقوقة بين فواكه اخرى بيد خصي لم يعلم علم هذه الثمرة ومكانها من مولاه . وتناول الباشا الثمرة دون اى انتباه ، إذ لم ينبهه احد بامرها . واكلها دون

ان يخطر له انها واحدة من تلك اللواتي اوصى بها وصاياه الصارمة .

وبعد ذلك بأيام ، اقبل الباشا على البستان ، ومضى راسا قبل كل شيء نحو شجرة البرقوق . ولم يكن عليها برقوق ! وقبل أن يستطيع امرؤ أن يشرح للباشا علة ذلك الاختفاء المؤسف ، كانت قد اخذت الباشا رعدته العصبية وهي الظاهرة التي تصحب اعنف غضبه ، وكان المدير قد طرح أرضا - بإشارة منه - وعوقب بالعصا عند اسفل جذع الشجرة . واخيرا تمكن الرجل المسكين من أن يجد آذنا صاغية ، وجيء بشهود فسمعت شهادتهم ، واستدعى الخصي ، وصاح به الباشا منذ ان لمحه آتيا من بعيد :

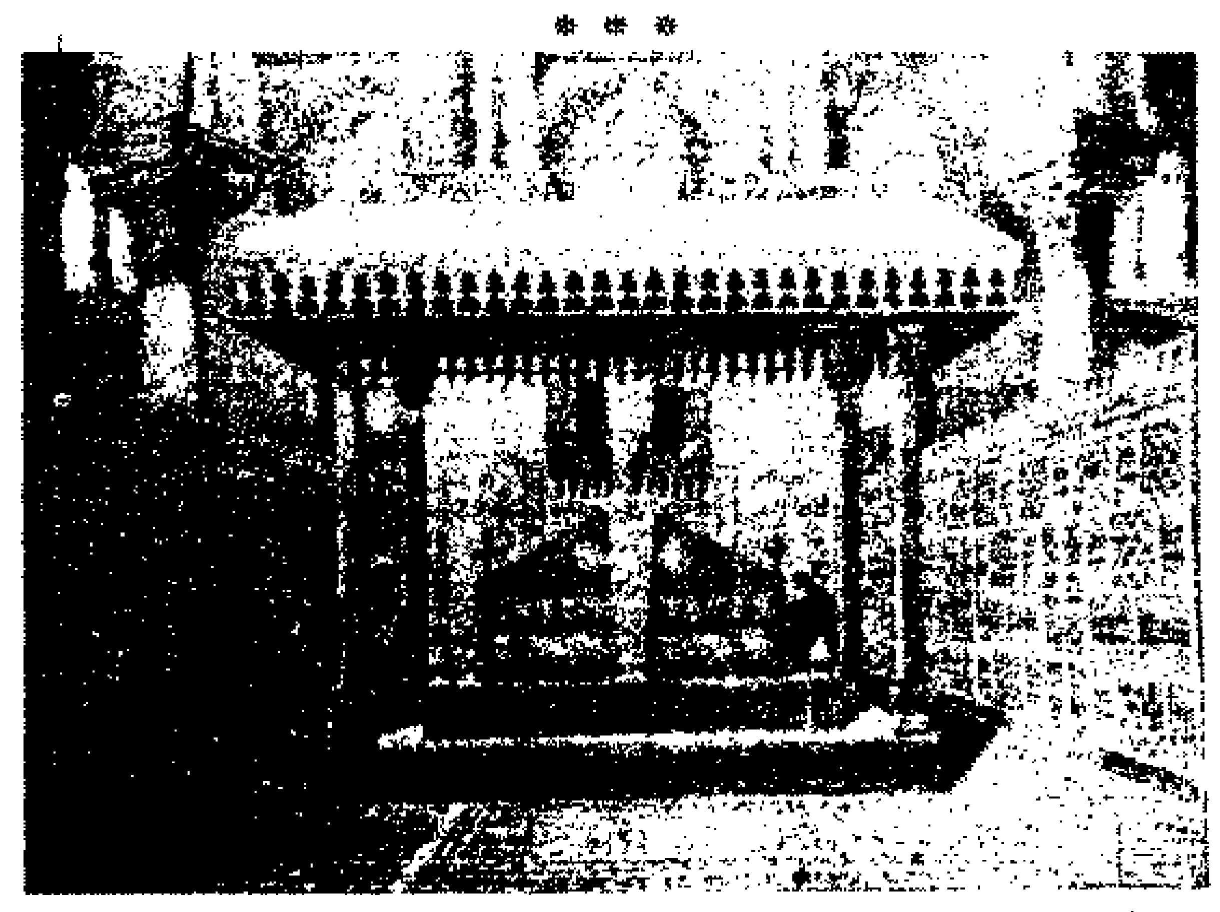
— هل أنا أكلت برقوقة ؟

— نعم يا صاحب السمو ، لقد قدمت لكم واحدة على مائدة الإفطار منذ بضعة أيام .

— ولم لم تنبهني إلى ذلك ؟

وإذا رأى الخصي الحركة التي صاحبت تلك الكلمات ، اندفع إلى الجواد المسرج في بذخ - جواد الباشا - وتوارى سريعا خلال الحقول قبل أن يحاول احد ان يتعقبه . وظل المسكين مختفيا عدة أيام . ولكن الباشا تكرم بالعفو عنه حينما تشفع له فيه بعض المقربين .

* * *



ظالم باشا

ولنبادر فنعلن أن الوالى ، رغم نزواته الاستبدادية ، قد برهن في ظروف كثيرة على ولاء جم ونبل صحيح . فهو لم يوافق قط على أن يسلم للباب العالي الثوار العديدين اللاجئين إلى ولاياته ، بل حمى في ورع - أثناء ثورة اليونان - أولئك اليونانيين الذين كانوا في مصر وأبقى عليهم في وظائفهم . استنادا على هذه الشواهد العارضة ، ومع ذلك فإننا نتورط في الخطأ إذا قلنا ان في ذهن الباشا افكارا منطقية عن العدالة وان في قلبه حبا حقيقيا لها ، وانه قادر يوما على أن يشتغل اشتغالا جديا في ولاياته برعاية الحقوق الطبيعية للإنسان ، وإن كان قد مجده البعض لأنه أراد ان يفرض على جميع رعاياه بلا تمييز شريعة حامية ، ووصاية تقوم بها إدارة منتظمة للقضاء .

* * *

إن القانون الذى أذاعه محمد على ، والذى أطنب المطنبون في الإشادة بحكمته وتمشيه مع روح الحرية ، لم يوضع يوما موضع التنفيذ . ويدعو الفلاحون محمد على باسم « ظالم باشا » . ولقد كانت تلك تضحية من ظالم باشا بصيته ، نزولا على مقتضيات مدح المادحين الذين حثوه على اتخاذه . ولذا سرعان ما أهمل هذا القانون بعد تشريعه . وإذا كانت بعض اتجاهاته قد طبقت ، فإن ذلك لم يكن إلا في مناسبات نادرة ، في الأحو التي لم تكن فيها مصالح الباشا المباشرة أو غير المباشرة تقع تحت طائلة نصوصه . وما كان يستطيع غير ذلك ، وإلا كان عليه أن يطيح أولا ، دون تردد ، بأمنائه ، دعائم سلطته ، وأن يحرم على نفسه عددا كبيرا من المظالم .

* * *

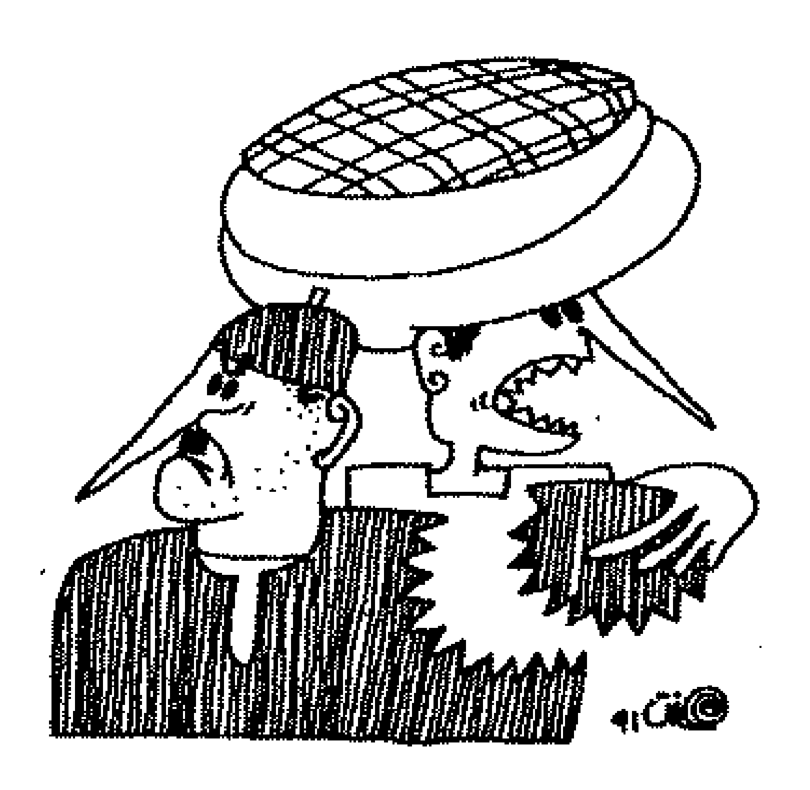
واضــع القـــــانـون ينتهـكـه :
جنــــايــة مصـطفى مختــــار بـك

ولعل أول مجرم كانت هذه النصوص الجديدة خليقة بأن تناله هو أهم محرريها ، « مختار بك » ، الذي رغم تربيته في فرنسا لم يفقد شيئا من الأذواق الجنسية الشائنة التي يتصف بها أهل بلاده . [مصطفى مختار مولود في مدينة قوله أيضا] . فبعد فراغه بأيام عشرة من نقل تلك القوانين ، هاج غضبه إذ صد شهواته المنحلة فتى عربي من خدمه صدا قاطعا ، فأمر دون رحمة بضربه حتى مات التعس تحت العصا .

ولقد رأى ظالم باشا حين بلغه نبأ هذه الحادثة - كما لا يزال يرى ذلك كثير من الكبراء في مصر - أن « رأس فلاح لا تساوى شعرة من رأس تركي » .

وبالرغم من النصوص الصريحة الصارمة الواردة في التشريع الجديد ، لم يكن على « مختار بك » من بأس إلا أن يدفع دية قدرها ٥٠٠ قرش أى حوالي ١٢٥ فرنكا ، وهو مبلغ أقل من مرتبه عن يوم واحد . وهكذا ترى أنه بهذا السعر يستطيع أن يقتل ، دون قلق ، أكثر من ثلثمائة وخمسة وستين رجلا في السنة . ولعل هذا الحكم - فوق ذلك - لم يصدر إلا رعاية للمظاهر ، فليس من المؤكد أنه قد تنفذ وأن عائلة الضحية قد تمكنت من قبض ذلك التعويض التافه .

* * *



قتـل وتعذيب

وليست تلك هي الواقعة الوحيدة التى نستطيع ان تكشف عنها الحجاب ، بل إن هذا النوع من الوقائع متوافر : فلكى يثار لمعارضة مشابهة أو لسبب آخر لا مسوّغ له ألقى « سليم باشا » بأحد مماليكه فى الماء ، وقتل « ماهوبك » أحد مماليكه تحت العصا وفعل مثله « شكرى أفندى » . ولم تنل جنايات القتل هذه أى عقاب إلى الآن .

لقد انقضى عامان منذ نشر هذا التشريع الذى راق للبعض أن يروا فيه عربون عهد من المساواة المدنية والسلامة الشخصية لجميع أهل الولاية وسكانها الاجانب ، ولكن مازال رجال السلطة يعذبون الفلاحين بالقرميد الاحمر المحمي فى النار ، ومازالوا يسمرون اذانهم ، ويمزّقون أجسامهم بضرب « الكرباج » لإرغامهم على دفع الضرائب والإتاوات للباشا « اكل الشعب » فهو خليق بهذا اللقب الذى اطلقه هومير على احد ملوك الالياذة .

* * *

دســتور الابــتزاز

ان الاختيار الحقيقي لنظام حكم شرعي ، وتقليد الرعايا حق الرجوع إلى سلطة الدستور ذات السيادة ، وخضوع رئيس الحكومة وعماله للحكم الأعلى الذى يصدره عن قضاء نزيه ولا مهرب منه ، كل ذلك لو تحقق لكان شر ضيق يصيب إدارة الوالى واسلوبه في التصرف . ولا شك في انه استحق إلى حد ما لقب « ظالم باشا » الذى منحه إياه الشعب وقد اصبح على يديه في درك من البؤس لا يستطيع معه أن يمنحه القدع منه .

* * *

ودون أن نستعرض تلك السلسلة من اعمال الطغيان التي عادت عليه بذلك اللقب ، حسبنا أن نلاحظ ان روح محمد على في فرض الضرائب والنهب وعدم النزاهة في ابتزاز المال روح لا نظير لها . انه لا يود ان يدفع مرتبات لأحد ، لا للجيش ولا للموظفين ولا للعمال ، ويود أن يدبر أمره بحيث يخدمه الجميع مجانا ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فالضباط المدنيون والحربيون ، والجنود والعمال يلاقون أشد العناء في تحصيل مرتباتهم وأجورهم ، وقلما يقبضونها نقودا ، بل يجدون انفسهم مرغمين في أكثر الأحيان على أن يقبلوها سلعا خارجة من مصانع الباشا ، مرغمين بعد ذلك – للحصول على نقود – على أن يبيعوا بثمن بخس تلك السلع التي حسبها عليهم الباشا بثمن باهظ .

لا توجد نقود في خزائن صراف حكومي يقدم إليه امرؤ « تذكرة » اى إذن صرف ، وإنما هو يفتح ما لديه من مخازن للمطالب بحقه ، ولهذا الأخير أن يختار – إذا كان ثمة مجال للاختيار – وأن يخضع للسعر المفروض . ويتوجه الدائن الذى لا يناسبه أن يأخذ مقابل حقه بعض منتجات مصانع الوالى – يتوجه إلى المرابين الذين يخصمون ورقته المالية بتخفيض قيمتها الاسمية تخفيضا كبيرا تتقاضى عنه السلطة الصناعية ضريبة لولاها ما كانت تاذن بهذه المعاملة .

* * *

تدمير المعدات .. على حساب الجيش !

ويكفي ذكر هذا المثل الملحوظ بين جميع ما تفتقت عنه حيلة محمد علي في سبيل النوال دون أن يفتح كيسه ، وانه ليدل على خصب قريحته في التلفيقات المالية : فبعد ان اخذ الاوربيون عكا ، رأى إبراهيم باشا تعذر الاحتفاظ بسورية إلى ابعد من ذلك الأمد ، فارسل الأمر إلى جميع القوات بأن تنسحب نحو مصر ، وأن تدمر قبل رحيلها جميع ما يمكن أن يستخدم ضدها . وهكذا هدمت الحصون ومعامل البارود واحرقت الخيام ، وكسرت المدافع ، ودمر العتاد الذي كانت قد زودت به ، بل لقد ذهبوا إلى حد تكسير البنادق والسيوف التي يموت حاملوها من الجنود . وعندما وصلت القوات إلى القاهرة قدرت جميع الخسائر التي اسفر عنها هذا الإجراء الذي نفذه المرءوسون صادعين بأمر رؤسائهم تقديرا دقيقا وظهر أن قيمتها تعادل حصيلة مرتبات فرق الجيش لمدة ستة أشهر . وأراد الباشا خصم هذا المبلغ من مرتبات أولئك الرجال الذين قاسوا كل عناء ومشقة . ولم يكن بد من أن يحتج سليمان باشا بشدة حتى يحول محمد علي عن رأيه العنيد ويقنعه بالعدول عن ذلك القرار الغريب .

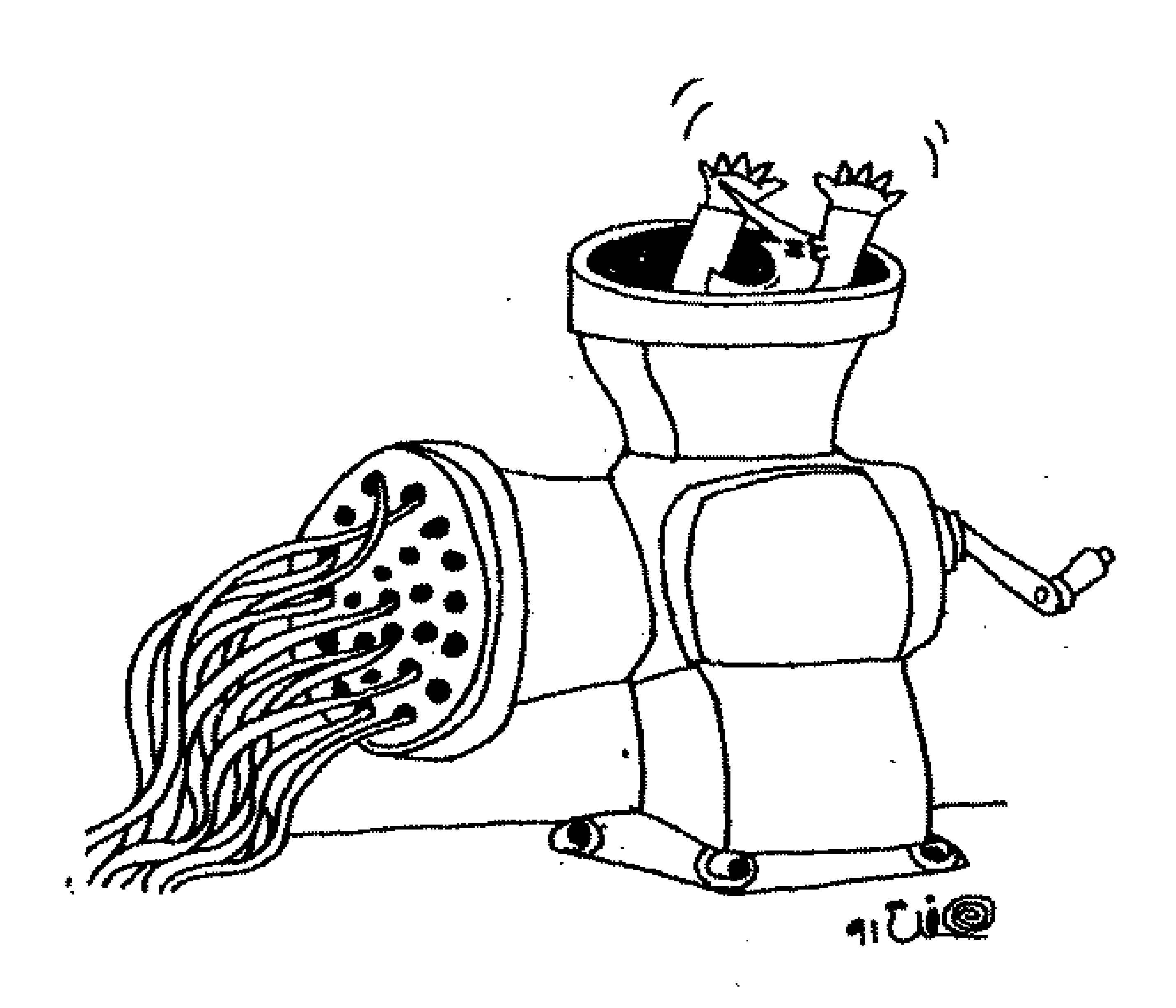
وفهم الباشا بعد لأي انه لم يكن على الاقل من حُسن التصرف أن يتعدى الحدود بهذه المصادرة الاستغلالية التي كانت خليقة بأن تثير سخط جيش لم يزل مصير الوالي متوقفا عليه بين لحظة واخرى .

مبدأ « الشعب كالسمسم »

ويبدو لنا في وضوح أن وضع واحترام النظم التي تكفل حماية الضعيف والمظلوم شيء يتناقض مع تلك الميول . ولو قد توافرت نية فعل الخير واعتاق اهل مصر المسخرين وإسعادهم ، لما احتاج الأمر بعد ذلك إلى محاكاة نظم الغرب واخلاقه ، إذ أن في آيات القرآن من الأمر بالمعروف ما يكفي لهذا كله ، ولا اقتصر العمل على اتباع وصايا النبي وأوامره . وبين المراسيم المفصلة التي جاءت في الكتاب الشريف ما ينكر الغصب والاحتكار ويعاقب عليها عقاب السرقة تقريبا . ولكن يبدو أن محمد علي استمد وحيه الفعال من المثل القائل :

« إنما الشعب كالسمسم ، ينبغى أن تطأه وتسحقه لكى تخرج منه

* * *



ثـورة الصعـيد

زاد محمد على الضرائب زيادة فادحة إثارت تذمر الأهالى . الفلاحون الذين انتزعهم الوالى من عائلاتهم ومن حقولهم وحشـدهم فى كتـائب الجيش أو المصانع ، باتوا يلعنون تلك النظم التى تعتصرهم دون أن تسفر عن أى مكافاة لهم او أى نفع يعود عليهم .

انتشر السخط بين الناس . وانطلقت الثورة فى الصعيد فى أوائل سنة ١٨٢٤ إذ خطب أحد أولياء « دراو » فى الجمهور أثناء صلاة الجمعة والهب عصبية الملأ . وشاءت المصادفة أن تنضم إلى جموع الساخطين عدة فصائل من الجيش الجديد كانت سائرة إلى « سنار » لتحل فيها محل ما بقى هناك من الجنود غير النظاميين .. وهكذا كان الجيش عونا قويا للثائرين . وسرعان ما أقبل على حزبهم مئات من الفلاحين فبلغ عددهم حوالى عشرين ألف رجل . .

غير أن هذه الثورة فى مظهرها لم تنتج من العواقب الوخيمة على الباشا ما كان يتوقع المرء منها ، بل أدت على النقيض خدمة للوالى الذى بدا أنه من شدة البطش بحيث يستتب له الأمر . ذلك أن الثائرين ، وقد ساروا إلى غير هدف محدد ، تحت قيادة رئيس غير كفء لم يستمد شخصيته من غير التعصب ، لم يلبثوا حتى فقدوا فى ملاحم متفرقة نحو ثلث قواتهم ، وأجبروا على العودة إلى النظام وعلى الخضوع ـ بعد هزيمتهم ـ لاستبداد أثقل وطأة مما عرفوا قبل القيام بثورتهم .

* * *

الشعب يحاول عزل محمد علي

وما دمنا قد سجلنا اللعنة التي تتردد على شفاه الفلاحين بلا انقطاع ، فلابد لنا أن نحاول تحليل تلك الواقعة التي أعارها الرأى العام أهمية كبيرة وضج لها ضجة شديدة في حينها ، ألا وهى المطالبة - المزيفة - بتثبيت محمد علي .

بينما حاول المصريون معبرين عن شعورهم الإجماعي أن يسعوا لدى الباب العالي سعيا رسميا متوسلين عزل حاكمهم ، حدث فجاة تحول واضح في اتجاه العقلية . وكان ذلك بطريقة سريعة وفعالة . ففي منتصف نوفمبر عام ١٨٠٤ ، استدعى الوالي إلى القاهرة جميع نظار وشيوخ الأقاليم المصرية واجتمعوا في القلعة ، حيث خطب فيهم « حسين باشا » - الذي اسندت إليه مهمة رئاسة الجلسة - خطبة بليغة عن ضرورة إدخال إصلاحات في إدارة الأقاليم للتخفيف عن الشعب ، فأثار أمام سامعيه أفقا سعيدا . وبعد تلك الخطبة الخالبة ، تبسط في أخذ رأى كل منهم ، وسمع المطالب والرغبات ، وأغدق الوعود على الجميع ، ثم تصنع أنه مضطر إلى مغادرة الاجتماع في الحال على أثر تسلمه رسالة من الوالي ، ورجا النظار والشيوخ أن يختموا سريعا بأختامهم في الجزء الأسفل من ورقة تعهد بأنه سيكتب عليها محضر مؤتمرهم متوخيا الأمانة في ذكر جميع مادار . ولم يجرؤ أحد من الموجودين على الرفض . وقام الباشا الأمين بارتكاب تبديل « برىء » ، فقد كتب على الورقة البيضاء الممهورة بالأختام التماسا من ممثلي الشعب المصرى للسلطان عبد المجيد يرجون فيه تثبيت محمد علي واليا على مصر . ورفع علماء القاهرة على أثر خديعة أخرى مطلبا لنفس الغرض . فأى ثقة يمكن أن تعار هذه العرائض اللطيفة المادحة ، التي أفسد بها صانعوها أماني كثير من البسطاء ؟ .

* * *

ابن « قولة » البــار

إلى جانب كثير من الملكات الملحوظة ، يتحلى محمد على بصفات الرجل الفاضل في حياته الخاصة . إنه أب بار ، وصديق امين ، ويندر ان تجد بين الأمراء الشرقيين مثل قصده واعتداله في شهواته ونقاء اخلاقه . وتضفي عليه حساسيته الكبيرة شيئا مؤثرا يكتسب به في يسر عطف المحيطين به .

لقد اثرت وفاة أولاده في نفسه اثرا عميقا ، وكان الناظر إلى وجه هذا الأب يستطيع أن يتابع اثناء أمد طويل ما وسمه به الحزن من علائم الالم . وكثيرا ما ذرف دمعا سخيا عندما فقد رفاقا له في الحياة العسكرية . وقد اشرك في سعده عددا كبيرا من اتراب الشباب ارتفعوا منزلة واغتنوا بفضل حظوته . ووجد بنو وطنه لديه ترحيبا كريما دائما .

وظلت ذكرى مسقط راسه عزيزة عنده ، ويا طالما اظهر عاطفته واهتمامه نحو الربوع التى درجت فيها طفولته ! ويقال إن رعاياه المولودين في « قولة » معفون من الضرائب ، لانه يؤديها عنهم للخزينة . ويقال ايضا إنه اصدر الأمر بحفظ بيت ابيه وعدم التعرض له باى تغيير ، وما زال يعيش في ذلك البيت اقرباء له قد غمرهم بنعمه .

* * *

الشيخ الشـــاب

يحب الباشا أن يذكر انه يبلغ من العمر سنا أكبر مما يبلغ في الواقع ، لكي يلفت نظر الناس إلى الفتوة التي مازال يتمتع بها . ففي عام ١٨٣٦ كان يقول إنه بلغ الثالثة والسبعين ، مما يرجع بمولده إلى عام ١٧٦٣ على حين انه قد ولد عام ١٧٦٨ أو ١٧٦٩ .

ومن نافلة القول أن نذكر صفاته العسكرية . ويكفي ما يحدثنا به عنها المركز الذى بلغه . لن نضيف سوى القول بانه في حياته الخاصة كثيرا ما دفع الشجاعة إلى حد التهور . ولم تكد تنقضي الآن اربع سنوات او خمس منذ راه القوم يمعن على ظهر جمل في رحلات طويلة شاقة وسط الصحراء ، او يتحدى جنادل النيل ، ليزور « فزوغلا » ، أى يبتعد عن عاصمته ستمائة فرسخ .

× × ×

في مصاف الأبطال !

يستفسر الباشا كثيرا - وهو من انصار الجديد - عن أمم أوربا ، تلك التي يحاكيها في شيء من التصنع ، بل ويحاكيها في أخطائها أيضا . وعلى الرغم من تلك النعرة ، مازال وطنه يؤثر تأثيرا ما على أفكاره وسلوكه . فهو يتحدث في حماس عن مقدونية ، وعن الاسكندر بطله الأثير ، وعن البطالمة ، وكأنه قد أصبح من أعضاء الأسرة لمجرد أنه خرج من نفس الأرض .

ذات يوم روى بعضهم على مسمع منه لمحة من حياة الاسكندر ، فصاح في فخر : « وأنا أيضا من فيليبية » (هكذا يدعو الأتراك أرض مقدونيا ، نسبة إلى فيليب أبي الاسكندر) .

ونابليون محل إعجابه كذلك . ولكن البطل المقدوني يستأثر أكثر منه بلب محمد علي ، نظرا لما ذكرنا من روح اعتداده بأسرة يظن أنه أحد أفرادها . وترجمة حياة كل من هذين العلمين هي مطالعته المعتادة . غير أنه يضيف إلى موضوعات تأملاته أيضا كتاب « الأمير » لمكيافيلي ، مازجا أمثلة البطولة بدهاء السياسة ، وقد أمر فترجم له هذا الكتاب خصيصا .

* * *

مصر وسيلته لا غايته

ولعل الآراء لم تتضارب في الحكم على رجل تضاربها في الحكم على محمد علي . فقد رأى البعض فيه بطلا جدد عهده مصر ومدنها ، على حين جعل منه الآخرون مغامرا بارعا سعى للوصول إلى السلطة لغرض واحد هو السيادة واستغلال البلاد لمنفعته الشخصية لا أكثر .

ومهما يكن من أمر تناقض هذه الآراء ، فمن الواضح ومما ينبغي أن يعترف به الجميع أن محمد علي مدين بمكانته وصيته لشدة فطنته ، واطراد مثابرته ، وقيادته الشاملة ، وعزيمته الكبيرة .

لا شك في أن محمد علي رجل ممتاز . ولكن هل كان غرضه حقا هو سعادة مصر ومجدها ؟ وهل حلت حكومة إصلاحية محل طغيان المماليك ؟ على هذا التساؤل سنحاول أن نلقي بعض الأضواء .

من الخطأ أن يقال إن مصر قد تمدنت ، فهي لا يمكن أن تتمدن فجأة بهذه الصورة . إنما المدنية محصول سلسلة من العمليات المتتابعة ، ولا يمكن أن تأتي ارتجالا في ربع قرن . وإذا لم ننظر إلا للنتائج في تقدير الأمور ، فإن المدنية تنتج رخاء مازالت مصر للأسف بعيدة عن أن تحظى به .

من الحق أن محمد علي حين أراد إدخال تجديداته في البلاد قد راعى العادات والمعتقدات والأوهام المتمكنة المستفحلة ، ومن الحق أن غيرة السلطان المتوجسة قد أقامت في سبيله عقبات يكاد أن يستحيل تخطيطها ، وأنه كان عليه أن يتابع أعماله بأن يجند جيوشا ويجمع ضرائب لا تتناسب مع طاقة البلاد الطبيعية ومواردها ، وأنه كان عليه أن ينظم البلاد بأن يلقى الأقاليم في الفقر كي يغذى حروبا لم تكن لتعود عليه إلا بالمجد الأجوف . يالها من وسائل عجيبة لتحضير البلاد ! .

لقد اعتصر مصر بعنف أنهكها ، وتعقب المصرى في صرامة شديدة ليجعل منه جنديا حتى لقد كانت القرى تقفر من أهلها كلما اقترب نحوها رجال التجنيد . على أن وجهة تفكير الباشا بين هذه المشقات جميعًا لم تكن تخفيف بؤس الشعب ولا إصلاح المفاسد التي بخسته قدره ، ولا تربية أمة جديدة أقل ذلا وأكثر ذكاء .

* * *

لقد أنشأ محاربين هزموا الوهابيين والعثمانيين ، وأنشأ بحارة وبنائين وعمالا ، وأقام مخازن للسلاح ومصانع ومدارس . ولكن هل صار الفلاح أكثر نظافة وأوفر غذاء وأحسن أخلاقا وتربية ؟ لقد بات الباشا يتصرف في رؤوس مال كبيرة ، ولكن كيف حصل عليها ؟ إنه لم يحترم شيئا : غصب مخلفات المماليك والمساجد والأوقاف والأملاك الخاصة ، دون تمييز ، ومنذ أن أصبح السيد المطلق لوادى النيل الخصب ، غير زراعته وإدارته سعيا وراء غرض واحد هو زيادة موارده الخاصة .

ولقد أضاف إلى استيلائه على الأرض احتكار الصناعة والتجارة ، فغدا المالك الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد . ومن هذا السلطان العريض لم يستخرج سوى أبهته الشخصية . لم يستمد من ذلك كله إجراء فعالا حاسما ضد ما يرسف فيه شعبه من بؤس وجهل . بل ولم يعمل في مصلحة المنشآت التي أسسها حربية كانت أو بحرية أو صناعية ، إذ

لم يقدر مستقبلها ببعد نظر ثاقب حقا ، ولم يرصد عدداً كافيا من التلاميذ للنهوض بها ومواصلة نشاطها بعد موته .

لقد استدعى محمد على من اوروبا عمالا فحضروا وبنوا سفنا واداروا ورشا مختلفة ، ولكن أهم ما في الأمر قد أهمل ، فانهم لم يدربوا إلا عددا قليلا جدا من العمال الذين يصلحون للحلول محلهم .

* * *

أين تربية الشعب .. ؟

انشئت المدارس لتحقيق غرض عسكرى محض ، وتخرج فيها نفر قليل من المؤهلين المقتدرين . وكيف كان يمكن أن يأمل المرء منها غير ذلك ؟ لم تكن توجد هناك العناصر الأعدادية ، وكان ينبغى فى طفرة رفع اشخاص ـ لم تتلق عقولهم تلك الثقافة الأولية التى تنتقل فى أوربا من جيل إلى جيل بانتقال الحياة ـ إلى مرتبة استيعاب العلوم . إن صنع أطباء ومهندسين وامثال اولئك وهؤلاء من شبان لم يكتسبوا المعارف العديدة المجردة والاستعدادات الملائمة التى ينقلها إلى نفس المرء تعليم تمهيدى تنمو تحت تاثيره ملكات الصبا ، تلك الذخيرة التى لابد منها لطالب الدراسات العليا .

إن صنع أطباء ومهندسين من شبان لم يكتسبوا ذلك فحسب ، بل ما تخيلوا يوما وجود المفاهيم التى اصبحت شائعة لدى طلبة المدارس الدنيا والعليا فى بلاد الغرب ، وإن محاولة تكوين عقول واعية ـ فورا ـ من مدارك ناشئة جانبت إلى اقصى حد مختلف درجات التعريف بمبادىء العلوم هذه التى باتت تحلق فى جو المجتمعات التى تحضرت فى بطء بحيث يبدو أنها افكار وراثية لدى الفرد يستنشقها منذ مولده ، إن تصورا للأمور فى مثل هذا التهور لم يكن من شانه ان ينتهى إلا إلى الإجهاض .

لم يعرف محمد على فى حياته اى تربية أولية ، فورطه فى الخطأ اتخاذه من نفسه مثلا ، واتباعه غريزة السيطرة . بدا له انه مستطيع ان يصنع العلماء كما جند الجنود بمجرد قوة إرادته ، على حين انه لو تمشى مع طبيعة الأشياء لاستطاع ـ وكان ذلك اقصى ما يبلغه ـ ان يعد لامته من بعده ، بمعاونة الاساليب الخاصة لكل فرع من الفروع ، فئة متخصصة

من الشعب قادرة على أن تفهم النظريات وعلى أن تحاول تحقيقها .

لقد بلغت استهانته بالتعليم ، إلى أخذه بعض التلاميذ من مدرسة الفرسان لضمهم إلى خدمه . وفي عام ١٨٤٠ تخير ثلاثة من أفضل طلبة الألسن ليعينهم طهاة تحت رئاسة كبير طهاة قصره ، وهو فرنسي .

* * *

تمييز الأتراك وتسخير الفــلاح

لم يفكر محمد على قط في تمكين الشعب من التحرر . لقد احتقر هذا الشعب دائما واحتقر لغته .. وجميع الرتب في الجيش من نصيب العثمانية وعبيدهم ، وكذلك الحال في المناصب العامة .

أما المصريون ، شهداء الدولة ، فهم الألعوبة الدائمة في أيدى رجال الإدارة ، أصحاب الأمر والنهي ، والتصرف في قوم جهلة لا نصير لهم ولا خوف من شكواهم وتذمرهم .

وهكذا يغش رجال الإدارة الزارع عند تقدير كمية ما تغل أرضه ، بموازين ومكاييل زائفة . وإذا حل أوان البيع قيل للفلاح دائما أنه لم يجن إلا قطنا ردىء الصنف من الدرجة الثالثة . وفوق ذلك ، يستطيع عدد غفير من الموظفين أن يطالبوه مرارا بدفع مبالغ من المال ، فإذا امتنع كان جزاؤه الضرب بالعصا ، وإذا أذعن ودفع فوراءه الكرباج أيضا لإرغامه على دفع مبالغ أكبر . وهم يأخذون الفلاح في السخرة ، وبدلا من أن يدفعوا له أجره يقولون له أن قريته مدينة للحكومة . وتلك شريعة التضامن ! .

* * *

البؤس لمصر الغنيــة

ولا يرجع سوء حالة مصر المالية إلى الحروب المتعددة الطويلة فحسب ، بل إلى الإصلاحات التى لم تفهم فهما صحيحا وإلى المشروعات التي لم يحسن ولى الأمر تقديرها أو تعجل في تنفيذها ، وإلى رذائل الإدارة ، وجشع الموظفين ، فإن هذا كله مما يدمر الثروة العمومية . وإنها لعقبات في سبيل رخاء البلاد ، تضاف أضرارها إلى مصائب الحروب ، وتواصل عملها الفاخر أثناء السلم .

وإذا ازداد رخاء المحصول في عام ، ازداد بؤس المصريين ، لأن محمد علي يقوم إذ ذاك بعمليات أوسع . فمثلا في سنة ١٨٢٩ كان الشعب يموت من الجوع بينما تكدست جبال من الغلال تحت امرة الباشا دون ان يكون للمصريين التعسين الإذن ولو بشراء شيء منها .

* * *

مـاذا عمـل لمصـر .. ؟

لقد قنع محمد علي بأنه جعل الصحف الأوربية تضج باسمه ، وانه أخضع الشعوب المحيطة به وأرهب السلطان في اسطنبول . لقد وجد انه هكذا ادى رسالة كبيرة فلم يشتغل بسعادة مصر إلا ثانويا وفي الحدود التي تكفل لمطامعه وسائل تحقيقها .

وبعبارة اخرى إن محمد علي ـ هذا الرجل الذي هيأته الاقدار لانتشال مصر ! ـ لم يعِ تمام الوعي مدى اعماله : لقد اقبل ليشيد ركنا تهدم في بناء الشرق ، فتناول بضعة الأحجار التي سقطت من هذا البناء ، وبنى في عجلة مسكناً غير ذي اجل بدلا من إقامة صرح جديد كان ينبغي ان يشيده المعماري الحق .

وجميع تصرفاته تحمل هذا الطابع ، طابع العمل المؤقت الاناني ، الذي يبدو عليه حتما لون من الإلهام . إنه لم يحم الزراعة قط ، وكان تطلعه للكسب وحده هو الذي دفعه ـ فيما يظهر ـ إلى ان يعطي للشرق مثلا نفعيا من الطرق الأوربية في الزراعة والصناعة . ومع ذلك فالمرء يتساءل كيف اتخذ الجندي المقدوني هذا السبيل ، وكيف ادرك الرجل الأمي ضرورة الخروج على المألوف التماسا للموارد والتماسا للعظمة .

* * *

ان الناظر إلى جميع الأعمال التي زخرت بها حياته ليرى واليا متلهفا إلى المجد لا مشرعا يضع اسس الرخاء الذي ينبغي ان يسود من بعده ، ولا مجددا يسعى إلى إقامة العدل وتشكيل مواطنين صالحين لأعمال السلم من ناحية ، مدربين على أساليب الدفاع من ناحية اخرى ، ولا وطنيا يبث حب الوطن في نفوس الشعب ويشعرهم بان بلادهم عزيزة عليهم . هو يعمل دون أن يكون مستقبل الشعب هدفا له . وحكومته حكومة فردية لا تستمد قوتها وهيبتها إلا من شخصه .

* * *

هــذا الإجهــاض ..

ولو أن محمد علي توخي العمل بطريقة متجانسة منطقية ، لكان عليه قبل أن يجعل من مصر بلدا فاتحا ، أن يجعل منها بلدا تاجرا ، زارعاً ، سعيدا . وكان عليه أن يتبع برنامجا كاملا من بث حب القوانين في شعبه ، وحب النظام ، وحب الخير العام ، والثقة في التجديدات ، بدلا من أن يفرض عليه بالعنف ما يعود بنفع مباشر لشخصه . كان ينبغي عليه الإقناع لا الضغط واستخدام القوة الفكرية لا القوة الغاشمة . وكان عليه ألا يصدر في الوظائف العليا عن إيثار صبياني أو دسيسة أو نزق ، بل أن يسندها إلى الخادم الحق وصاحب الجدارة .

لقد كانت الزراعة والصناعة خليقتين بأن تصبحا موردين من أخصب موارد الثروة والرخاء لمصر لو أنهما وجدتا من الحكومة تشجيعا ومن النظم حماية ، ولكنهما باتتا ضحية المصالح الحربية ، حكرا لمنفعة الباشا وحده ، فلم تفيدا شيئا من نشاط هو في الواقع ظاهري أكثر منه حقيقيا ، وسرعان ما وقف نموها .

جملة القول أن محاولة عملاقية قد أجريت ، ولما لم تكن قائمة على أساس من الخبرة الكافية فقد أحدثت على الرغم من جميع الظروف المواتية ما يحدثه إجهاض رهيب من الآلام العنيفة والإنهاك الشديد . لقد أدى محمد علي مهمته ، وهو الآن مازال على قيد الحياة ، واقفا على أطلال عمل كان يبدو أنه مهيأ لأجيال قادمة ، يشهد حكم الخلف عليه .

آخـر أيـام محمـد علي

كان الأطباء قد نهوا محمد علي من أن يرى نساء حريمه . بيد أن ابنته التي كان يحبها حبا جما والتي كانت تسعى دائما إلى أن تكون ذات تأثير كبير عليه ، كثيرا ما كانت تدعوه إلى قصرها حيث تجعل في خدمته جواري من الفتيات الجميلات كن ينسين الشيخ نواهي أطبائه . وكان يعاود زيارة ابنته مرارا ، حتى إذا نفدت قواه وعجز عن إجابة لمسات مثيرة ، ناولته ابنته عقاقير مهيجة أدت آثارها العنيفة إلى اختلال قواه العقلية .

وإزاء تلك الظروف ، وضعت إدارة مصر بين يدى إبراهيم . وثقلت على إبراهيم حياة أبيه حتى لقد منع الموظفين - قبيل وفاته هو - من عيادة الشيخ البائس الذى هوى إلى درك الطفولة . ويقال ان « سليمان باشا » وبضعة آخرين كانوا من الجراة بحيث تخطوا تلك الأوامر .

وعاد عباس باشا - وكان قد اعتزل في الحجاز ليتفادى محضر عمه الذى لم يكن يطيقه - عاد ليتسلم مقاليد الحكومة التي تركها إبراهيم .. غير أنه لم يظهر نحو جده احتراما أكبر .

وهكذا يمكن أن يقال ان محمد علي توفي مهجورا قد انصرف عنه أولاده . فقد كان سعيد باشا هو الوحيد الذى تبع نعشه . ودفن والى مصر بالمسجد الأنيق الذى بناه في القلعة ، ومن هناك يبدو أنه يشرف على البلد الذى فتحه بعبقريته ! .

■ ■ ■

فلاح أسمر ، ارتدى جلبابه الوحيد ، ولف راسه في عناية بملفعته ليبدو كاسيا وإن ظل حافي القدمين . إنه يتشبث بآخر ما بقي له من مظاهر الاحترام . ها هو ذا بين رجال الشرطة المخمورين بزيهم التركي القشيب ، وهم رجال شديدو الباس ، مفتولو العضلات والشوارب . طرحوه أرضا ، فنكسوا راسه ، وعروا ساقيه ورفعوهما ، واوثقوا قدميه كيلا تخطئهما ضربة واحدة من الضربات المائة التي مضى يتبادل توقيعها بالعصا شرطيان متخصصان فى هذا الفن من فنون التعذيب . لقد جردوه من آدميته .

وعبثا سجد أمام رئيسهم يستعطفه شيخ البلد الجليل ذو اللحية البيضاء ، فقد استوى الرئيس مسترخيا على أريكته الوثيرة ، يستروح في لذة انفاس النرجيلة ، وكأنه لا يسمع توسلات الشيخ المتشفع ولا صرخات الفلاح المغلوب على أمره .. وفيم التشفع ؟ ما ذنب الفلاح الكادح إلا في عجزه عن دفع مزيد من الضرائب للباشا .

تلك هى الصورة الواقعية التي رسمها إدريس افندى - الفنان والمؤرخ - للاحتجاج على ظلم « محمد علي » .

لقد عاش إدريس افندى بين الفلاحين ، وشاطرهم لذع سياط « المامور » ، والحبس في سجن قذر خانق ، لأنه عارض السلطة الغشوم ، وأبى الضيم ، واستبسل في مصارعة رجال الباشا .



حكم ظالم باشا

(بريشة إدريس افندى)

إبراهيم باشا

صـــــــورتـه

كل ما يبدو لك من خلقة إبراهيم باشا ينبيء عن رجل فظ سوقي . قامة قصيرة ، وبطنة ، وحركات مفاجئة ، ووجه انتشرت فيه نقط حمراء ونقره الجدرى ، وعينان رماديتان ترتفعان عند الزاوية الخارجية ، وثغر مبتسم دائما يضفي علي وجهه الصغير مظهرا مرحا ـ هذه هي الملامح الرئيسية في خلقته .

وكانت طبيعة إبراهيم محتدمة فائرة ، ولكنك إذا أضحكته بشيء من التهريج رجع بسهولة عن حدة غضبه . وكان نزقا عنيدا ، حذرا ، يتوجس من كل شيء ، قاسيا ، مسرفا في الانتقام . ولقد ابدى في حرب المورة ابشع همجية ، متعقبا بوجه خاص النساء والأطفال ، زاعما انه يريد استئصال ذلك الجنس . ولن اتحدث عن جسارته ، فقد ضرب امثلة عديدة من الاستبسال .

وكان يحب الانتفاع فلا يدخر وسيلة لتكديس كل ما يطيب له . وبلغ من تكالبه علي الكسب انه اثناء حياة والده كان يزاول التهريب ويسرب إلى القاهرة ، تمباك ، مزارعه التي كانت في القبة . وكان يعرف دائما ان يجد العلة لينكص عما وعد .

وكان يتكلم كثيرا كلاما رديء العبارة خاليا من كل علم ، والويل لمن كان يجرؤ علي ان ينقض ما يقول او ان يقدم بعض الاعتراض علي مشروعاته . ولا يكاد إبراهيم يعرف القراءة والكتابة إلا في مشقة ، ويضيف إلي هذه الذخيرة من الجهل غرورا وكبرياء لا تطاق . انه لا يعرف فضل المحسن ، وبالتالي لا يسعي إليه ، وهو اقل من ذلك سعيا إلي اثابته . وقد يصغي احيانا إلي راى اولئك الذين يحيطون به ، ولكن إسرافه في الاعتداد بنفسه واملاقه من سداد الراى الذى يتيح للمرء ان يقارن ، ومن المعارف التي تتيح للمرء ان يناقش ، كل ذلك يدفعه إلي اتباع رايه دائما لانه يعتقد انه افضل الآراء ، وهو يقول : « انا إذ افعل كل شيء بنفسي يغمرني المجد أو اللوم دون سواى »

* * *

مذبحة المماليك الثانية

التجأ المماليك الذين فروا من مذبحة القلعة - حيث قتل ١٢٠٠ منهم - إلى النوبة ودنقلة . واضطروا مكروبين من ناحية بعقبات الطبيعة ، ومن ناحية أخرى بتعقب « إبراهيم بك » إياهم - وقد أنهكهم قتال أقدموا عليه هنا وهناك دون ظفر - إلى أن يلتمسوا المأوى في الجبال التي يقطنها العبابدة والبشارية . وأجبرتهم هذه القبائل الهمجية على أداء ثمن باهظ عن تلك الضيافة العقيمة . وقد أنفق البكوات لإمداد جنودهم بالقوت اللازم في قلب تلك الصحراء جميع ما ملكت أيديهم . وعلى الرغم من التضحية بذخائرهم فقد هلكت جميع جيادهم من قلة الغذاء ، وهلك كثير من رجالهم نتيجة لشدة الحرمان .

فلما أملق المماليك من راحة الحياة وأصبحوا يعانون مالا يطاق من الضيق ، قبلوا أن يستمعوا لعروض الصلح التي أرسل إبراهيم الماكر مندوبيه يقترحونها عليهم وسط كربتهم . ولم يعدهم سلامة حياتهم فحسب بل وأن يعيدهم إلى مثل المناصب التي في مستوى رتبهم وأن يرد لهم ممتلكاتهم ، وهذا كله على شرط أن يعترفوا بحكومة محمد علي .

ولقد خلبت هذه الوعود نحو ٤٠٠ مملوك فأنستهم الدرس القاسي الذي تلقوه منذ عام خلا ، وكان على رأسهم بكوات مختلفون ، فقبلوا المقترحات . وفي نهاية مايو عام ١٨١٢ نزلوا من الجبال قوافل صغيرة واتجهوا نحو أسنا حيث كان مقر قيادة إبراهيم . فلما اجتمع المماليك ، ورأى ابن محمد علي أنه لا ينبغي انتظار قدوم آخرين تستدرجهم تلك الوعود المغرية ، أصدر أمره بالإجهاز على أشتات هؤلاء الجند الذين كانوا ذوي صولة فيما مضى . وفي ليلة واحدة ذبحوا جميعا بلا رحمة . ولقي مائتا عبد أسود مصير سادتهم .

وأنقذت وساطة طبيب إبراهيم الفرنسي مملوكين فرنسيين من طائلة هذه المذبحة الرهيبة . وثمة مملوك آخر لقيته في أسنا يدين بنجاته إلى ما كان عليه من الصبا والجمال .

* * *

إبـراهـيم القـــائـد

لم يكن لإبرهيم شيء من ملكات القائد الصالح ، بل لم تكن له الثقافة العلمية اللازمة لقائد الجيش ، فلذلك كان ما كسبه من فوز راجعا إلى جبن أعدائه بصورة لا يمكن للمرء أن يتصورها أكثر منه إلى تدبيره ومهارته . وهو لا يصدر تعليمات واضحة محددة ، وإنما يتكلم كثيرا ، حتى يختلط الأمر على رجاله لكي يستطيع إذا فشلت المهمة أن يلقي وزر الخطأ على أولئك الذين ـ حسب ما يرى ـ لم ينفذوا أوامره .

ويقود إبراهيم قواته العسكرية بالتملق والخرافات وإغرائها بالسلب والنهب ، ولا يعاقب أبدا على ما ترتكبه من فظائع كما أنه لا يثيبها . ولا يشغله أبدا همّ المحافظة على سلامة جنوده والعناية بصحتهم ، فانه يهدمهم بالمشي المنهك ، وقلة الراحة التي يمنحها إياهم ، وقلة الغذاء والكساء .

هذا هو الرجل الذى اجترأ قلم مرتزق (مسيو سكاكيني) على أن يكتب عنه : « أن إبراهيم روح الجيش . نظرته الواعية ورباطة جاشه من صفات قائد محنك . وولاؤه وتواضعه النبيل وانطلاقه وسط نار الوغى قد كسبت له قلوب رؤساء جنوده . لقد قدر لهذا الأمير ، الإدارى الصالح ومحب أنوار الثقافة والمدنية ، ألمع مستقبل » . هكذا ـ على وجه التحديد ـ يكتبون التاريخ ! .

* * *

إبـراهـيم العظـيم ؟ !

إنما يعرف الرجل بأعماله . ولرسم صورته وأخلاقه ينبغي ذكر الوقائع في المكان الأول لا التفلسف ولا الإشادة بالمناقب ولو كان في أبلغ الأساليب . وها هي ذى بعض الوقائع التي تتحدث من تلقاء نفسها ولا تحتاج إلى تعليق .

أثناء جولة بدمياط ، شرف إبراهيم باشا بحضوره حفلة أقامها لتكريمه « سرور » القائم بأعمال الانجليز . وبعد راحة القيلولة قدمت له صبية تتراوح سنها ما بين الثامنة والعاشرة سلة من الفواكه والأزهار . فأثنى إبراهيم للقنصل على جمال ابنته مشيرا إلى أنها سرعان ما سوف تبلغ نضجها ، وسأله هل أمها على قيد الحياة ، فلما أجيب بالإيجاب ، أضاف :

— ويحكم أيها النصارى لا تتزوجون إلا امرأة واحدة ! انى أتمنى لك موت الأم هذا الأسبوع لكى تحظى بأخرى .

* * *

إبراهيم البطل ؟ !

اكتوبر ١٨٢٦ :

أثناء حملة شنها إبراهيم باشا على ضواحي « تريبوليزا » أسر الرجال فتى يونانيا في كمين ، فأحضروه إلى خيمة الباشا ، وسأله إبراهيم عن اسم قائد فرقته ، فأجاب الفتى انه جندي ولكنه لا يعرف شيئا مما يسأله عنه . وألح الباشا في سؤاله ، وإزاء رفض الفتى هدده بالموت ، فرد عليه :

— لو كان لي بذلك علم فلن أخون مصلحة وطني . فاغتاظ إبراهيم من هذا الجواب النبيل ، وتناول بندقية واحد من حراسه ، وقتله .

ديسمبر ١٨٢٦ :

أقبل رجل يوناني إلى معسكر « مودون » للمفاوضة على تبادل بعض الأسرى . فرفض إبراهيم باشا عروضه ونهاه عن المجيء مرة أخرى . وبعد بضعة أيام ، حضر نفس المفاوض إلى المعسكر لنفس الغرض . فأمر الباشا – دون أن يحاول الإصغاء إليه – بالقبض عليه وإلقائه حيا في تنور معمل للآجر .

* * *

إبراهيم التاجر

لقد بلغ من جشعه انه كان يعمل دائما على تأخير دفع مرتبات جنوده واحتجاز شيء منها . وفي المورة لم يدخر وسيلة للاستيلاء على النقود . وهذه بعض الأمثلة التي تشهد بذلك :

كان « أنتوناكي ميتاكسا » تاجرا يونانيا يبيع ويشترى لحساب إبراهيم باشا في مودون . كان يبيع لأفراد الجيش من اللوازم ما يحتاجون إليه ويقبض الثمن أوراقا مالية تخصم من مرتباتهم . ولما ظل الضباط مدة طويلة دون قبض مرتباتهم ، عمدوا – لكي يحصلوا على شيء من النقود – إلى أن يشتروا ملابس وأسلحة من « ميتاكسا » بأثمان غالية ثم يبيعونها

في السوق ليستمدوا بعض المال نقداً . فكان عملاء « ميتاكسا » يشترون نفس السلع بثمن بخس ويملاون بها مخازنه من جديد .

وكان إبراهيم باشا يبيع لجنوده أحذية وملابس بأغلى من ضعف ما كلفته من ثمن . وفي شهر سبتمبر عام ١٨٢٥ أرسل إليه في مودون مسيو « جيتانو ماري » على ظهر السفينة التوسكانية « ڤيسيوس » بقيادة القبطان « بوسنجوفيتش » شحنة من ٩ آلاف زوج من النعال المصنوعة على الطريقة المصرية . وكان الزوج منها يكلف نحو ١٠ قروش ، فجعل إبراهيم ثمنه للجند ريالين .

وكان يضارب في أسعار العملة ، ويضطر فرق الجيش على أن تقبلها بالسعر الذي يفرضه . وبهذه المضاربة ، كسب يوما في مودون نحو ٦٠٠,٠٠٠ قرش إذ استغل الأمر ورفع سعر الريال إلى ١٦ قرشا بينما لم يكن سعره يتجاوز ١٥ قرشا في مصر .

وكان هذا الإتجار الدنيء وكانت تلك الصفقات الملفقة سببا في أن ظلت فرق الجيش في المورة ترتدي الأسمال وتعاني البؤس .

* * *

رحلتـه إلى فرنسـا

عندما قام إبراهيم باشا برحلته إلى فرنسا ، رويت عنه عبارة لو كانت قد صدرت عنه حقا لدلت على ذكاء فريحة لم أكن لأتوقعه منه . فعلى أثر زيارته لقصر « فرساي » وحدائقه ، قال أنه لا يدهشه بعد أن رأى ذلك ألا يكون الفرنسيون أهل دين وتقوى ، فانهم يملكون جميع ما وعد به المتقون في الفردوس ، ديارا فخمة ، وجنات جميلة ، ونساء خالبات الحسن ، وانبذة لذيذة .

وقد تبدلت أفكار إبراهيم باشا بصورة غريبة أثناء زيارته لأوربا . وحين عاد إلى مصر ، كان ينوي إدخال تحسينات عديدة حال موته دون تنفيذها .

كان يريد أن يجعل من ميدان الأزبكية حديقة عامة ، وأمر بشراء آلة بخارية لري هذه الحديقة التي لم يمهله الزمن للشروع في غرسها .

* * *

وفـاتـه

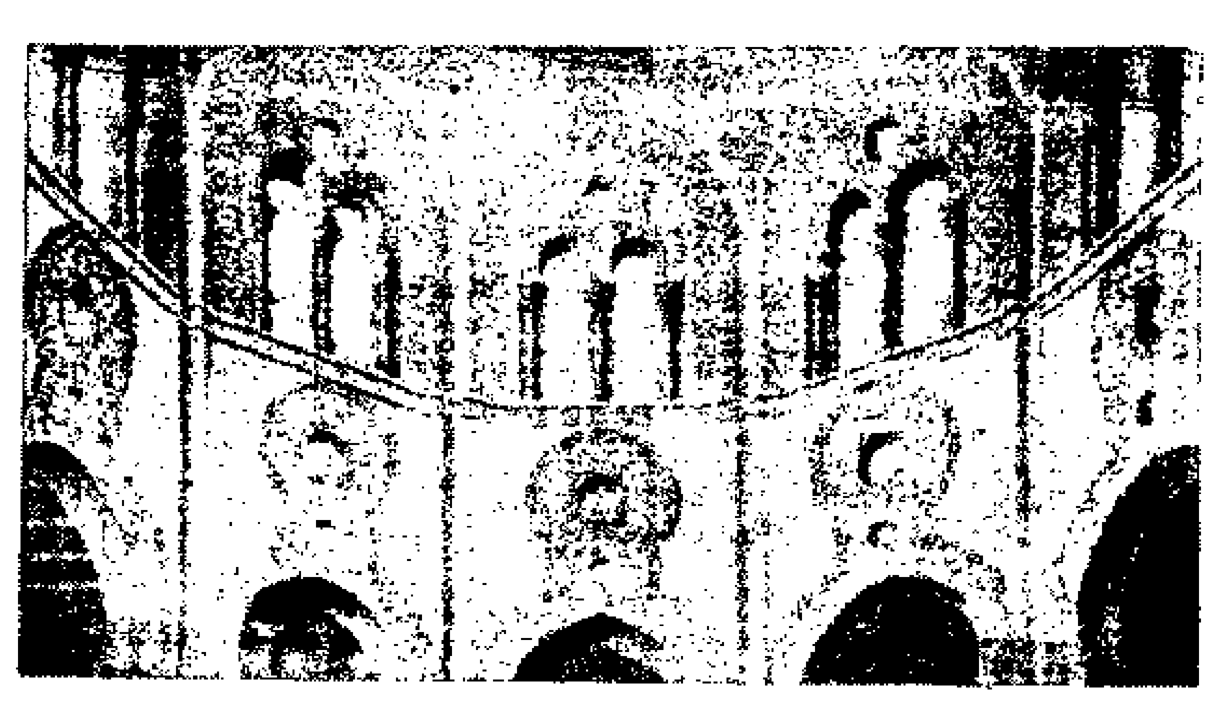
ينسب « بونفور بك » وفاة إبراهيم إلى إهمال عارض لا إلى انحراف فيه . فذات يوم زار حصون الاسكندرية بصحبة « جاليس بك » وعاد إلى القصر في قيظ الظهر ينضح عرقا ، وجلس امام نافذة في مجرى الهواء يشرب الشامبانيا ، فنكأ ذلك ما كان قد اصابه من داء الرئة حين سافر إلى القسطنطينية ولم يكن قد برأ منه تمام البرء . وتفاقم الداء ثم اضطرته صدمة برد جديدة في القاهرة إلى لزوم الفراش ، فرقد الرقدة التي لم ينهض بعدها . وقد توفي في القاهرة في ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨ (١٤ من ذي الحجة عام ١٢٦٤) وهو يتمتع بثناء اقاربه ، بين يدي وكيله مسيو « بونفور » ، دون ان يفكر في الموت ، بل قائلا انه لابد ان يبيع قطنه بثمن مرتفع ! .

* * *

رثـاء محمد علي لإبراهيم

حين انبيء محمد علي بوفاة إبراهيم قال انه كان يعتقد دائما ان ابنه سوف يسبقه إلى القبر وان حفيده عباس سوف يخلفه على عرش مصر .

■ ■ ■



عباس باشا

نشأته :

ولد عباس باشا في القاهرة عام ١٨١٣ . وكان الولد الوحيد لطوسون باشا الذي اختطفه موت مبكر من حنان أبيه محمد علي . وكان الوالي الشيخ يؤثر عباس في صباه بمحبة خاصة . فنشأ مدللا وأهملت ثقافته بين يدي مربيه التركي وما أحاطه من عبيد حريصين على إرضائه . وهكذا شب دون أن يلتفت إلى التجديدات التي أدخلها جده والتي كان يجد نحوها في نفسه شعورا من الازدراء لازمه طيلة حياته .

ذات يوم بمناسبة عيد الأضحى . ذهب يقدم فروض التهنئة لجده ، فجلس على الديوان واضعا ساقا على ساق ، وهو وضع لم يكن أحد يجرؤ على اتخاذه في حضرة الباشا الشيخ . واستاء محمد علي إلا يراه يسعى إليه ليقبل يده في احترام ثم ينتظر حتى يأذن له بالجلوس . فسأله بأي حق أباح لنفسه تلك الحرية في الجلوس . فأجابه :

— بحق الرجل الذي يعرف شرف أجداده . ألست باشا ابن باشا وحفيد باشا ، بينما أنت لا أجداد لك من الأشراف ؟

فأمره محمد علي ـ وقد استاء لإجابته ـ أن يعود إلى جناحه ويلزمه إلى حين صدور أوامر أخرى . وفي اليوم التالي أرسله إلى معسكر « جهاد أباد » قرب الخانكة ليتلقى تربية وتعليما يناسبان آراء الوالي المجدد . وألحق بمدرسي اللغة التركية والفارسية والرياضة كولونيل فرنسي لتدريس العلوم العسكرية ومدرس للطبوغرافية الحربية ومدرس للتاريخ .

ولقطع الصلة بحياته الماضية ، أبعدت عنه حاشيته ، وعين مماليكه بالمدرسة الحربية ، وألغي فريق الصيد الذي كان يخرج فيه . وترك له حصانان ، ولكن بدل أن يسرجا على الطريقة الشرقية كالكرسي الوثير ، أجبر على أن يمتطيهما فوق سرج الخيالة . وذات يوم ، امتطى حصانه

الذى لم يكن قد اعتاد ذلك السرج . فجمح الحصان والقاه ارضا ، امام كتيبة كانت تدق طبولها إيذانا بان تؤدى له التحية العسكرية . فأمر - وقد اثارت غضبه تلك الحادثة - ان يوثق الحصان وأن يضرب بالعصا .

وبعد عشرة اشهر من الجهود غير المجدية ، إذ رأى الباشا الشيخ نفور حفيده من الفن العسكرى ، أعاده إلى القاهرة لكى يدرس الإدارة .

وظهر نفوره من نظم الفرنجة ومن زيهم في كل مناسبة . وعندما أمر السلطان أن يرتدى جميع كبار موظفى الدولة الطربوش بلا عمامة « والفراك » « والبنطلون » والأحذية ، لم يرد قط ان يلبسها . وإزاء هذا الازورار داعبه الدكتور كلوت بك قائلا له انه لابد أن يتخذ ذلك الزى ، فشكاه إلى جده الذى أمر في الحال بان يقف الطبيب اياما ثمانية . وهو لم يلبس ذلك الزى إلا بعد ذلك بسنوات ، ولمجرد الرحلة إلى القسطنطينية لتسلم مقاليد الولاية .

وسرعان ما عين محمد على عباس على رأس الإدارة الداخلية ، حيث يصعب تصريف الأمور ، وحيث ابدى فهما نادرا لحاجات البلاد ومصالحها الحقيقية .

كان يضيف إلى شدة عزمه قسطا كبيرا من التلطف والولاء وكرم السليقة ، وجودا أصيلا ورثه عن أبيه . وكان بسيط العوائد حفيا يعرف كيف يؤلف بين أهل البلاد على اختلافهم . لقد عمدت بعض الصحف ، وقد ضللها اشخاص سيئو النية من الأوربيين الذين خابت امالهم الطامعة ، إلى إذاعة ان حكمه كان يعوزه الذكاء والنظام . ولكن هذه الوقائع تكذب ما رموه به :

فمنذ شبابه تدرب على الشئون الإدارية والحربية وحكم مصر بوصفه وكيلا لمحمد على . وفي عامى ١٨٣٨ و ١٨٣٩ ، حين اوشك وقوع الحرب بين الباب العالى ومصر ، وكان إذ ذاك محمد على في « فايزوغلو » قرب خط الاستواء وإبراهيم باشا في تخوم الممتلكات السورية ، عين محمد على ، لإعداد معدات الحرب حفيده حاكما عاما على مصر وحاكما لشئون سوريا المدنية .

وفى تلك الفترة التاريخية العصيبة ابدى في الحكم من النضج وفهم الأمور ما استحق به إمارات الثناء من جده . ولكن طلب لأعدائه - ليثيروا ضد الرأى العام - ان ينشروا عن كرهه للنظم الأوربية اقاصيص كاذبة

سياسته

عندما تولى عمه إبراهيم باشا الحكم ، اعتزل عباس الحياة العامة وانتهز الفرصة لأداء فريضة الحج . وحين توفي إبراهيم ، كان عباس الذى آلت إليه الولاية - حسب رسم الوراثة العثماني - ما يزال في الحجاز ، فتألف في اليوم نفسه مجلس من أصحاب المناصب الكبرى في الدولة لتصريف الأمور إلى أن يصل عباس . ولقد ابلغوه نبأ توليته عن طريق القنصل الانجليزى الذى ارسل سفينة تجارية من السويس عاد على ظهرها الوالي الجديد إلى مصر بعد انقضاء بضعة ايام على وفاة إبراهيم . وكان في استقباله عمه سعيد باشا الذى كان إذ ذاك في القاهرة ، يصحبه جميع أصحاب المناصب الكبرى . وتمت مراسم المناداة بعباس باشا واليا على مصر في قلعة صلاح الدين بحضور اهم اعضاء الاسرة وكبار الموظفين العسكريين وقناصل الدول .

وقوبلت توليته بابتهاج من جميع الشعب . ولقد بادر فبدأ حكمه باتخاذ بعض الإجراءات التى حققت جزئيا بعض ما كان الشعب قد رجا من امل . رفع بعض المظالم الصارخة ، وكاف عن بعض الخدمات ، واحكم بعض ما كان قد اختل من النظام . وفي ذلك ما يبرر الثقة العامة التى حازها في أول ايامه . ومن بين تلك الأعمال يذكرون انه اعاد جماعة من الموظفين المفصولين من إدارات مختلفة دون معاش إلى وظائفهم .

بلغ عباس باشا السلطة في اوائل عام ١٨٤٩ ، حين لم تكن لفرنسا اى سيادة في الشرق ، وكانت قد سقطت مكانتها في مصر . وكان يدير في نفسه أفكار جده في الاستقلال ، ولكن من ناحية إنشاء امبراطورية عربية وقد فاتح في ذلك قنصل فرنسا العام مسيو « لموان » ، وساله ما إذا كانت الحكومة الفرنسية تؤيده ان هو حاول التخلص من التبعية للسلطان وأراد مسيو « لموان » ، قبل ان يرتبط بجواب ، ان يستطلع راى الوزير الذى اجاب بالإيجاب . ولكن بعد فوات الأوان . فقد ضاق عباس بذلك التانى ، فافضى بنفس المشروع إلى قنصل انجلترا العام مستر « موراى » الذى وعده في الحال بالمعونة والحماية ، واصبح عباس صديقا للانجليز ، راجيا ان يتخلص فيما بعد من نفوذهم وذلك بإثارة العصبية العربية . وريثما يرد على سعى انجلترا ووعودها ، وجه نشاطا كبيرا واهتماما خاصا إلى إدخال جميع التحسينات الممكنة على

المواصلات والنقل بين القاهرة والسويس . وفي الوقت نفسه التمس التيقن من تأييد النمسا بان ارسل إلى فينا طبيبةً الدكتور « بروئر بك » الذي كان خليقا بان يعقد له أواصر علاقة متينة .

لم يكن مطمعه الأوحد هو ضمان استقلاله وضمان عرش مصر لأولاده من دون أمراء اسرته الآخرين ، وإنما كان يداعب في الخفاء آمالا اعرض ويحلم بتكوين امبراطورية عربية .

وقد تحدثوا عن غرامه بإحدى البدويات دون أن يقدروا سبب هذا الزواج الغريب . وفي الواقع انه اقترن بابنة واحد من اقوى رؤساء قبائل بلاد العرب فربط بقضيته جميع عرب الحجاز الفخورين بهذه المصاهرة . ولكي يحسن إخفاء علاقاته ، امر ببناء قصر له في صحراء السويس و آخر في العقبة حيث كان يستطيع استقبال الرؤساء العرب بعيدا عن اعين الرقباء ، وان ينضج مشروعاته ويعد العدة لتنفيذها . وبعون قبائل شبه الجزيرة ، كان يمكنه ان يملي احكامه لا على مصر فحسب بل على بلاد العرب ، وان يقطع فوق ذلك على جيوش السلطان البرية طريق سوريا ، بينما كانت تحصينات الاسكندرية تحميه من أي محاولة لهجوم بحري يشنه عليها الباب العالي . وبعد هذا كله ، كان يقدر انه في حالة إخفاق مشروعه واجدٌ ملجأ امينا في قبيلة زوجته الجديدة .

ولم يعرف الناس في أوربا شيئا عن هذا المشروع العريض ، ولم يعرفوا قط امر علاقات الباشا بمسلمي الهند الذين كان في استطاعتهم إثارتهم ضد الانجليز كما حدث ذلك فيما بعد بوقت قصير ، ولم يروا في هذا الاعتزال بالصحراء إلا بعض أهواء الوالي . ولما كان قد اغضب كثيرين من الاوربيين بإصلاحاته ، لم يفتهم ان ينالوا منه في الصحف . ومن الحق ان اخلاقه ـ كاخلاق جميع الباشوات ـ مادة طيبة لنقد الناقدين . ولكن مهما يكن من امر ما يقال فيه ، فلقد كانت إدارته من أخصب الإدارات .

* * *

بغضه للأوروبيين

تشهد إصلاحات عباس باشا وأقواله شهادة علنية باحتقاره للفرنجة . وان جميع ما رآه منذ طفولته ليبرر مسلكه . لقد كان يريد أن يعود إلى التقاليد والأخلاق القديمة دون أن يهمل شيئا في سبيل ذلك . ولما أثار غضبه ما كان يرى كل يوم من تغلغل العوائد الأوربية ، نهى مماليكه وجنوده عن تدخين السيجار والسجائر ، وإذ ضبط بعضهم متلبسين بما نهى عنه أمر بأن تخاط أفواههم ، ثم أمر بعد أربع وعشرين ساعة - حين رأى أن في ذلك عقابا كافيا - أن تقطع الخيوط التي حيكت بها شفاههم . وقد روى لي هذه الواقعة الفظة طبيبه مسيو « ليو » ، ونشر النبأ على ما أظن ، في جريدة « التيمس » .

ولقد دفعته روح الاستقلال عن الباب العالي بقدر ما دفعه كرهه لزي الفرنجة إلى استعادة الزي العربي ولكن في جميع بهائه وبساطته الطريفة . واقتدى به المماليك فارتدوا جلاليب حريرية مطرزة و « كوفيات » موشاة بالذهب كان يرتفع ثمن عقالها إلى ٦٠٠ قرش . وعاد الترف الشرقي إلى الظهور ، إذا لم يكن في روعة أبهته ففي أناقته النبيلة الجميلة .

ولم يكن يحب استقبال القناصل ، فإذا اضطرته المناسبات الكبرى إلى أن يتجشم عناء زيارتهم ، دعاهم إلى مادب عشاء طيبة على الطريقة الأوربية لم يكن يظهر فيها . فقد كان يتعشى بمفرده دائما . كان يتوارى ليتناول وجباته ويأكل على هواه ، أى كما يأكل الشره إلى حد ما .

* * *

عباس باشا والحيوانات

وتحدثوا كثيرا عن حبه للحيوانات . ولقد كان يقتني بالفعل أحسن الجياد وأحسن الجمال في مصر والحجاز . وبلغ من حرصه عليها أنه لم يكن يأذن لأحد بزيارة حظائره . لم يكن عباس يمنع دخول داره بالعباسية ، كما يزعم « شارل ديديبه » ، ولكنه كان من هواة الجياد فكان يخشى عليها شر العين الحسود ، شأنه في ذلك شأن جميع الأتراك ، ولذا أصدر أوامره لحرسه بالقبض على كل من يقترب من الحظائر .

وكان لعباس برج حمام تعمره أجمل وأندر الحمائم التي كان يستجلبها

من جميع البلاد . وكانت لديه ايضا عدة أجناس من الكلاب ، وعدة انواع من الخراف والكباش ، وكان يحيط تلك الحظائر التي يعيش في وسطها بعناية مترفة نزقة هي بعض صفات الأمراء الشرقيين ، فكانت حمائمه تحمل جلاجل من فضة ، وكانت كلابه تحمل أطواقا بالذهب ، وكانت كباشه مصبوغة بالحناء مذهبة القرون . بيد انه لا ينبغي أن تصدق ما يزعمه بهذا الصدد « ماكسيم دوكان » الذي يسيطر عليه خياله الخصب، ولا يعرف من مصر إلا مظهر الاحجار التي صورها بآلته .

* * *

أخــــــلاقــه

أما اخلاق عباس ، فكانت كأخلاق جميع سلاطين الشرق ، حيث يدلل الغلمان اكثر مما تدلل الجواري . لقد كان عباس يستسلم لمجونه في الخفاء ، مع مماليكه الذين كان يجعلهم يؤلفون حلقة لإمتاعه ، ولكن كرامته كانت تأبى عليه أن يكون الأداة السلبية للذة عبد او فلاح .

وكان قاسيا محبا للانتقام . رفض يوما طبيبه الدكتور « جاندي » ان يعطيه كمية من السم فكسر الخزانة واستولى على القارورة ، وسمم بها احد مماليكه . ورفع الطبيب استقالته إلى الباشا الكبير ، وقبض مؤخر مرتبه . ولكي ينمي المبلغ الصغير الذي ادخره قام برحلة إلى سنار . وعندما علم عباس بسفره دبر اغتياله عند اول بئر في صحراء البايوضة .

وكتب بعضهم ان عباس باشا قد تزوج راقصة شهيرة من راقصات القاهرة تدعى « صفية » وهذا خطأ في ذكر الواقعة . لم يفعل عباس ، وقد خلبه جمالها ، إلا أن اتخذها خليلة له بعض الوقت ، ثم سرعان ما نسيها .. إلى أن عاد فتذكرها حين علم من قبيل المصادفة ان احد الضباط في حيازته « نرجيلة » فاخرة كان الوالي قد اهداها إلى عشيقته إذ ذاك ، فإذا به دون أن يتحرى كيف انتقل هذا الغليون إلى ايد اخرى ، يامر بالقبض على المراة التعسة وإلقائها في النيل . ولم تنج « صفية » من الموت إلا حين باحت بفقرها الذي اضطرها إلى بيع جزء من متاعها . على أن ذلك لم يمنع من ضربها بالعصا وإعادتها إلى اسنا بين البغايا اللواتي عرفهم كثير من الاوربيين .

ولم يكن عباس باشا يجد راحته في جو المدن . كان يتطلب هواء

الصحراء الطلق النقي ، وتشهد بذلك قصوره في بنها والعباسية والدار البيضاء .

وكان القصر الذى ابتناه في وسط السهل المجدب ، الذى يبدأ عند آخر مقابر السلاطين المماليك ويمتد بين الاراضي المزروعة وسلسلة المقطم قصرا اشد عزلة وكآبة من مخيم للبدو . فهكذا كان يعسكر مع موظفيه في قصر باشى ، تحميه بعض قطع المدافع وفرق الجيش المرابطة بجواره ، بعيدا عن مطالب القناصل ، بعيدا عن توسلات الاوربيين ودسائسهم ، وعلى استعداد للنزوح في أدنى لحظات السامة .

وكان عباس منخفض الجبهة ، عريض الفكين ، له ذوق الأطفال ونزق المجنون ، وكان ورعا ، متطيرا ، تكسوه التمائم والتعاويذ من كل نوع .. ولكنها لم تستطع أن تحميه من ميتة فاجعة .

* * *

نهـــاية عبـــاس

وحانت نهاية عباس عندما اكتشفت الخطة التى كان يبيتها للتخلص من سلالة محمد علي لكي يضمن وراثة عرش مصر لابنه من بعده . كان الامر امر انقلاب يودى بحياة خمسين من كبار ذوى النفوذ يوم سفر المحمل ، وهو احتفال عظيم يجتذب جمهورا غفيرا . واعطيت قائمة باسماء الضحايا لخورشيد باشا . وفي ذلك اليوم ، على اثر تسليم مقود المحمل لامير الحج ، كان مقدرا أن يتشاجر اثنان من رؤساء « الباشيبوزوك » وان ينتضيا سيفيهما ، وأن يشترك في الشجار رجالهما الموزعون بمهارة . وفي هذه الملحمة كان مقدرا ان يقتل عدة باشوات وبكوات وحاشيتهم . وكان مقدرا في الوقت نفسه ان يتصنع عدد من الفرسان تعقب القتلة فيدخلوا في وقت واحد دار حليم باشا ، عم الوالي ، وقصر مصطفى أحمد باشا وإسماعيل باشا ، ابني عمومته ، كانهم لاجئون يلتمسون الماوى ويقتلون جميع من هناك . هكذا فيما يقال ، كان عباس يريد ان يتخلص من مزاحميه ويمهد طريق العرش لابنه « الهامي » .

على أن القول بذلك ينبغي ان يؤيده الزمن اولا وان يؤمن عليه قوم نزيهون قبل ان يسجل في التاريخ . لاننا إذا صدقنا كل ما اشيع في القاهرة ، راينا أن الجميع كانوا يحيكون الدسائس إذ ذاك . فقد كان سعيد

باشا على الرغم من همود عزيمته يدرب على حمل السلاح بعض الجنود والبحارة . ولم تثر هذه الاستعدادات الحربية قلق عباس ولكنها أثارت حفيظته . ولم يكن بد لسعيد من الالتجاء إلى السم وقاية لحياته وضمانا للعرش . وهذه الرواية أشد شبها بالحقيقة .

وكان عباس ذا بنية ضعيفة القلب ، ولكن وفاته لم تكن نتيجة سكتة قلبية كما قيل . فقد وجدت علامات سوداء حول عنقه ، على حد قول الرجل الذى كلف بغسل جثته قبيل دفنه . وكان قد دخن فى الليلة البارحة « جوزة » محشوة بالشيرا (وهى مستحضر من الحشيش) ثم نام نوما عميقا . فانتهز القتلة تلك الفرصة . وعلى الرغم من ارتكاب القتل فى قصر بنها الذى كانت تحرسه قوة كبيرة من الحرس ، لم يعترض أحد سبيل القتلة فى فرارهم .

لقد أسرجوا جيادا وهربوا عابرين ثلاثة مراكز من الحرس يلتمسون مأوى لهم ، من حيث انطلقوا بعد ذلك دون أن يفكر أحد فى اعتقالهم .

ويقول أكثر الآراء انتشارا أن ميتة عباس كانت بأيدى مملوكين اشتراهما سعيد باشا ، على حين يزعم آخرون أن مصرعه كان بأيدى أخوين أراد هذا المستبد الفاجر أن يجبرهما على ارتكاب الفعل الداعر الذى تروى الأساطير أن « المشترى » صنعه « بجانوميد » ، فرفضا ، فهددهما بشر العقاب لما يبديان من عصيان ، فخشيا أن يحيق بهما مصير عبد كان قد خصى فى الليلة السابقة ، وانتهزا فى نفس الليلة فرصة سكر الباشا وخنقاه .

ولكن وقائع كثيرة تشهد ضد خليفته . فقد منع سعيد باشا القيام بتشريح الجثة ، ودفع الطبيبين « ديامنتى » و « مارتينى » إلى توقيع شهادة بأن عباس قد مات بالسكتة القلبية . ولم يسع إلى تعقب القتلة . وأقبلت أم عباس باشا على سعيد باشا باكية تسأله أن يثأر لولدها ولكنها لم تستطع أن تنال شيئا . وألقى القبض على رجل برىء لمجرد الشكليات .

وقد أراد إلهامى باشا ، ابن عباس ، أن يستجوب المماليك ، فلم يؤذن له . وبعد ذلك لم يتحدث أحد عن القتلة الذين لجأوا ـ فيما يقال ـ إلى القسطنطينية ، حيث دبر ابن عباس ، الذى يقيم اليوم هناك وقد تزوج إحدى بنات السلطان ـ أمر يقتلهم فى أحد المواخير

ان كل ما اشيع عن موت عباس غير صحيح - قال لي ذلك طبيبه الدكتور « ديامنتي » - فقد كان ذا بنية ضعيفة القلب ومات فجاة نتيجة لازمة دموية . وقد سمع مملوكاه النائمان كالعادة بجوار بابه بعض اقوال مختلطة لم يفهماها قط ، وعندما رايا سيدهما قد فارق الحياة هربا في الحال إلى القاهرة خشية ان يتهما بقتله . وفي الصباح . إذ لم يخرج احد من تلك الغرفة ، تقدم بعض رجال القصر فوجدوا عباس متصلب الجسد مثلوجا . فاستدعوا طبيبه الذي أكد انه مات بالسكتة القلبية منذ ست أو سبع ساعات . ولما كانوا يظنون انه مات مسموما ، ولم يستطع الطبيب ارتجالا ان يجيب بالنفي فقد اذنوا له بفحص الجثة ، ولم يكن عليها أي اثر للعنف كما لم يكن على الفراش او في المكان المحيط به ما يدل على ذلك .

وكان هذا الموت في بنها يوم ١٤ يولية عام ١٨٥٤ (٩ من شوال عام ١٢٧٠) واراد احظياء الباشا - وعلى راسهم سكرتيره وخازنداره - ان يكتموا أمر موته ، فوضعوا الجثة في عربة لنقلها إلى العباسية ، واتخذوا جميع الإجراءات اللازمة لحفظ النظام باسمه ، ثم احتبسوا انفسهم في القلعة أياما ثلاثة قبل ان يصرحوا بفتح الابواب .

* * *

عهد عباس

ودخل سعيد باشا القاهرة في ١٧ يولية . وكانت قد أضيئت الانوار في قصر شبرا حيث اجتمع الكبراء لاستقبال سموه . وكانت البهجة عامة : فالعبيد يأملون دائما آمالا كبارا من تغير السادة . وكان الشيء الوحيد الذي يشفع لسعيد باشا هو حبه رفقة الاوربيين وانه تربى تربيتهم .

وبعد أن انقضى شهران على تولي سعيد ، أسف الكبار والصغار على موت سلفه . ذلك ان عباس كان إداريا صالحا ، جرى على يديه المال وجرت الحياة في مصر من اقصاها إلى اقصاها . ولم يمدحه الاوربيون لانه لم يغدق عليهم أسباب الغنى ، ولكنه بوجه عام يدفع اجر من ادى له بعض الخدمات .

فلقد وجد - وكان في ذلك على حق - ان الفرنجة قد خدعوا جده في اكثر الأحيان فكان عليه أن يحذرهم . ولم يكن يمنح ثقته باستخفاف ، بل طرد

من الخدمة عدة أوربيين أرادوا - وقد ازدهتهم معارفهم - التدخل في شئون الحكومة أو ازجاء النصح له دون أن يسالهم نصحا .

وقد فاجاه الموت وهو يفكر في مشروعات كبيرة : هب انه لم يكن يتامر للقضاء على جميع أعضاء أسرته الخليقين بأن يطالبوا بالولاية على مصر ، فقد كان يفكر في أن يضمن العرش لولده ، الذى كان قد أرسله منذ وقت قصير إلى أوربا لكى يعقد فيها أواصر علاقات دولية بقدر ما يتثقف في شئون الحكم .

■ ■ ■



لقد تعمق إدوبيس في الحياة المصرية حتى الحياة في الحريم وصفها وصفا واقعيا

سعيد باشا

الابتهاج بتوليته

قال احد المصريين سنة ١٨٥٨ عن الانوار التى اوقدت بمناسبة توليته : « ان الزيت الذى اوقدناه احتفالا بجلوسه ندفع ثمنه دموعا منذ اربع سنوات » .

وفي الواقع ما خيب عهد آمالا انعقدت عليه خيبة أَمَرّ من مُلْك سعيد ، وما كانت مصر اسوأ حكما ولا اباس حالا منها في ايام هذا الأمير الذى رباه اوربيون لم يحسنوا إلا تملق نزواته ، والاغضاء عن رذائله بل تشجيعها .

* * *

تربيته وصفاته

فيما عدا اللغة الفرنسية التي يتكلمها بطلاقة ، لم ياخذ سعيد شيئا عن الاستاذين « كونيج » و « هوزار » . ولكن الاستاذ « كونيج » عرف كيف يغتني . اما الاستاذ « هوزار » فقد مات قبل تولي سعيد . ووعد سعيد أرملته بمعاش تتقاضاه مدى حياتها غير انه لم يصرف لها ابدا . ولما حضر ابن الاستاذ « هوزار » إلى مصر علم ١٨٥٨ ، اكتفى صاحب السمو بإهدائه سيفا بوساطة مسيو « سباتييه » .

ولم ياخذ سعيد ايضا من عشرته للاوربيين دروسا في سلامة الذوق . فان القصر الذى ابتناه في « المكس » وكلف بتشييده مهندسه مسيو « مونتو » قصر من طراز « الروكوكو » قد انتشرت في عمارته كالشوك نحوت منقولة طبق الاصل عن « الانفاليد » مذهبة شديدة السرف في الطلاء بالذهب .

ولم يتعلم منهم سعيد باشا اللباقة والادب . فانه غليظ اللغة والعادات لا يرعى حدا ولا اعتبارا . وكثيرا ما يلقى عبارات قذرة في حديثه . ذات يوم كان جوابه لكلوت بك الذى اقبل يحمل إليه تحيات من طرف الاميرة ماتيلد :

— وماذا تحمل هذه البغى ؟ (باللغة الفرنسية) .

ورغم انه وقح مع الجميع ، فانه لا يبيح لاحد ان يخاطبه بنفس اللهجة .

وانك لتتقدم حين تحصل على الإذن بالدخول إلى سموه ، وتنتظر ان يتفضل السيد بالالتفات إليك او ان يومىء لك بالتحية ، ولكنه إذا كان لا يريد ان يفطن إلى وجودك ، ادار لك الجميع ظهورهم وانصرفوا عنك : فانت إذن من المغضوب عليهم .

وليس لسعيد باشا من اللباقة وحسن التصرف ما يلزم لمن يكون في مركزه ، فكثيرا ما يسيء استقبال شخصيات كان ينبغي ان يظهر نحوها قدرا من الاعتبار او ان يتكلم عنها في تحفظ .

وسعيد خفيف العقل قليل التبصر ، يتحدث عن شئونه امام الاجنبي كانه يتحدث إلى امين سره . وهو فوق ذلك شديد النزق ، ومن كان حظيا لديه يوما لا يظل في حظوته تلك امدا طويلا .

وعلى الرغم من تثقفه بالعلوم والفنون الأوربية ، وهو امتياز لم يتيسر لأحد من اسلافه ، فقد اهمل جميع المؤسسات التي انشاها محمد على وإبراهيم باشا ، وتركها تختنق . لقد نقلت اخيرا جميع ادوات المرصد إلى احد مخازن الذخيرة ببولاق ، واحيل الفلكي العربي إلى هيئة المهندسين . واصبحت ورشة تصليح ادوات علوم الرياضة ورشة لصنع القذائف الفارغة . وكل شيء في سبيله إلى التلاشي جزءا بُعد جزء .

* * *

وظيفة جديدة للجيش ؟

وحل محل الجيش الباسل الذي ارغم السلطان على التسليم جيش من الماجنين يتعذر ان يسود فيه النظام إذ تسود فيه الحظوة اولا . وإلى جانب جنود يلبسون الاسمال ، يرى المرء كتيبة فاخرة من الغلمان تمثل دور الجندي اثناء النهار ، وتؤدي ادنى ادوار الفجور اثناء الليل .

ويزعم متملقون انه احل التجنيد النظامي محل الضغط ، غير ان جيشه منتخب قبل كل شيء لغرض إرضاء شهواته الدنيئة . ولم يشنق من شنق من شيوخ القرى نتيجة لرفضهم تسليم ابنائهم للجندية ، بل لانهم ارادوا إنقاذ ابنائهم من مجون الوالي الذي يجند الجنود ليملأ بالغلمان حريما له .

* * *

الضبط والربط

وفي الأيام الاولى من شهر ديسمبر عام ١٨٥٨ عندما كان سعيد باشا في منفلوط ، وجد اثنان من الجنود انهما بجوار قريتهما فذهبا إليها لرؤية أهلهما وانفقا الليلة معهم . فلما عادا في الصباح القى القبض عليهما . وامر سعيد باشا ، دون ان يحيلهما إلى مجلس عسكرى ، بان يرميا بالرصاص . فصوب الجنود الذين كلفوا بتنفيذ هذا الحكم المستهتر بندقياتهم بحيث يتفادون قتل زميليهم . واحتد غضب الباشا فامر بربط كل منهما إلى فوهة مدفع وإطلاقه ، وحكم على الجنود المتسامحين بالأشغال الشاقة

* * *

الشـره

وسعيد باشا يحب الفواكه ويكلف بها ، ويرد إليه الكثير منها على كل باخرة قادمة من اوربا . ويقولون انه ينفق ما ينيف على ١٢ ألف فرنك لإرضاء نهمه . وعند فتح صندوق من صناديق الفاكهة ، تراه أحيانا ينقض على الثمار في شره المنهوم يلتهم واحدة بيمناه ويمسك أخرى قد انتقاها بيساره ويشتهي الباقي بعينيه .

وهناك واقعة تشهد أكثر من سواها بسفاهة الباشا ، وهي الأمر الذى اصدره إلى مدير مستشفى قصر العيني بعدم فرض طعام المرضى القليل على أي جندى . فالجنود أحرار في تناول جميع ما يريدون وبالقدر الذى يريدون . وممنوع على الأطباء أن يصفوا لهم ضمن علاجهم الحمية من الطعام وتناول نصف وجبة او ثلاثة ارباع وجبة . وبلغ من شدة عطف سموه على جنوده الذين يشاطرونه لذاته واعماله ويدفعون عنه ما يحدق به من خطر أن عين لهم طاهيا خاصا ومائدة خاصة في المستشفى .

اهتمامه بمصالح مصر !

واهتمامه بمصالح التجارة اكذوبة من اكاذيب « دى ليسبس » وشركاه . ذات يوم شكا بعضهم إلى سعيد باشا من قلة انتظام السكة الحديدية التي لم تعد تسير قطرها إلا لحاجات سموه الخاصة ، فأجابهم :

— انني شديد الاهتمام بمواصلاتكم التجارية . ولكن هذه السكة الحديدية ملكي ، ولي ان افعل بها ما اشاء .

ولا يشغل بال سعيد ان يخلف وراءه اسما شريفا وسعادة للشعب الذى عهدت به الأيام إليه ، وإنما التكديس والاستمتاع هما شغله الشاغل .

قال لسليمان باشا :

إن نصائحك طيبة جدا ، ولكنى قبل كل شيء أريد ان الهو ولا يعنيني ما بقي بعد ذلك ، وليكن من بعدى الطوفان .

وقد حرم جمهورا من المستخدمين الشيوخ معاشهم ، منكرا ما ادوا من خدمات .

مصرع أحمد باشا :
حادثة كوبرى كفر الزيات

ان موت احمد باشا ابن ابراهيم ـ ولى العهد ـ يثير شبهات كثيرة حول سعيد . كان احمد يفعل خيرا جما . كان جوادا يهب هبات عريضة وهو يدير أملاكه في اقتصاد . ومات ماسوفا عليه لان ملكه كان يعد مصر بمصير اسعد مما استطاع أسلافه أن يؤدوا لها . فليس من بين سلالة محمد على أو إبراهيم من يعد مصر بحكومة أبوية صادقة الحدب .

ولم يبد سعيد باشا اسفا على موت أحمد باشا ، بل كان مما قال : « ان اليتامى الذين كان يعولهم سوف يبكونه » . وغضب على ادهم باشا الذى تحسر لفقد احمد .

وتحوى إحدى الصحف الصادرة فى مالطة فى ١٨ يونية ـ على ما اذكر ـ مقالا اثبتت فيه ان موت احمد باشا كان قد أمر به سعيد .

واقر لى مهندس انجليزى انه قبل وقوع الحادثة ببضعة ايام ، صدر الأمر بالحفر حفرا عميقا عند أسفل اعمدة القنطرة دون أن تستدعي ذلك حاجة ظاهرة ، فقد كان هناك من الماء ما يحمل أشد السفن . ولولا العمل الذى حفر هوة ابتلعت عربات القطار ، لجاوزت العربة الثالثة ـ التى كانت تقل احمد باشا ـ مستوى الماء ولنجا وارث العرش .

وقبل وقوع الحادث ببضعة اشهر ـ ومن المحتمل ان يكون ذلك فى الوقت الذى اختمرت فيه فكرة هذه المؤامرة الرائعة ـ سرح سعيد باشا « جريم بك » مدير السكة الحديدية الانجليزى ، وأحل محله « نوبار بك » وهو فتى ارمنى ، وقدم له الهدايا قبل وقوع الحادث وبعده .

* * *

شقـــاء مصــر

ان شقاء مصر الاكبر مصدره نظام وراثة عرشها الذى وضعه السلطان . بان ولاة مصر الذين خلفوا محمد على كانوا يعلمون ان ابناءهم لن يرثوا الحكم ، فاهتموا بثرائهم اكثر مما اهتموا برفاهية مصر . انهم يفكرون فى ملء خزائن اولادهم ، او فى ان يضمنوا لهم العرش ، ولا يفكرون قط فى إسعاد المصريين .

وإدارة سعيد باشا اسوا من إدارة عباس . تبلغ ديون الوالى الحالى اكثر من ٦٠ مليون ريال (٣٠ مليونا من الفرنكات) . وهو مدين بمثل هذا المبلغ للجيش الذى لم تدفع له مرتبات منذ وقت طويل ، وبمثله ايضا لتجار مختلفين . وباتت شركة الملاحة للبحر الاحمر عاجزة عن القيام بعمل اى شىء لان الوالى لا يمدها بالمال اللازم . لقد انفق اثناء السنوات الاربع التى قضاها على العرش اكثر من ٤٠٠ مليون ، ويدين بحوالى ٨٠ مليونا . ولم تدفع للموظفين مرتباتهم منذ عشرة اشهر . وهناك تفكير فى ان يخصم منهم مرتب ثلاثة اشهر كما حاق بهم من قبل .

* * *

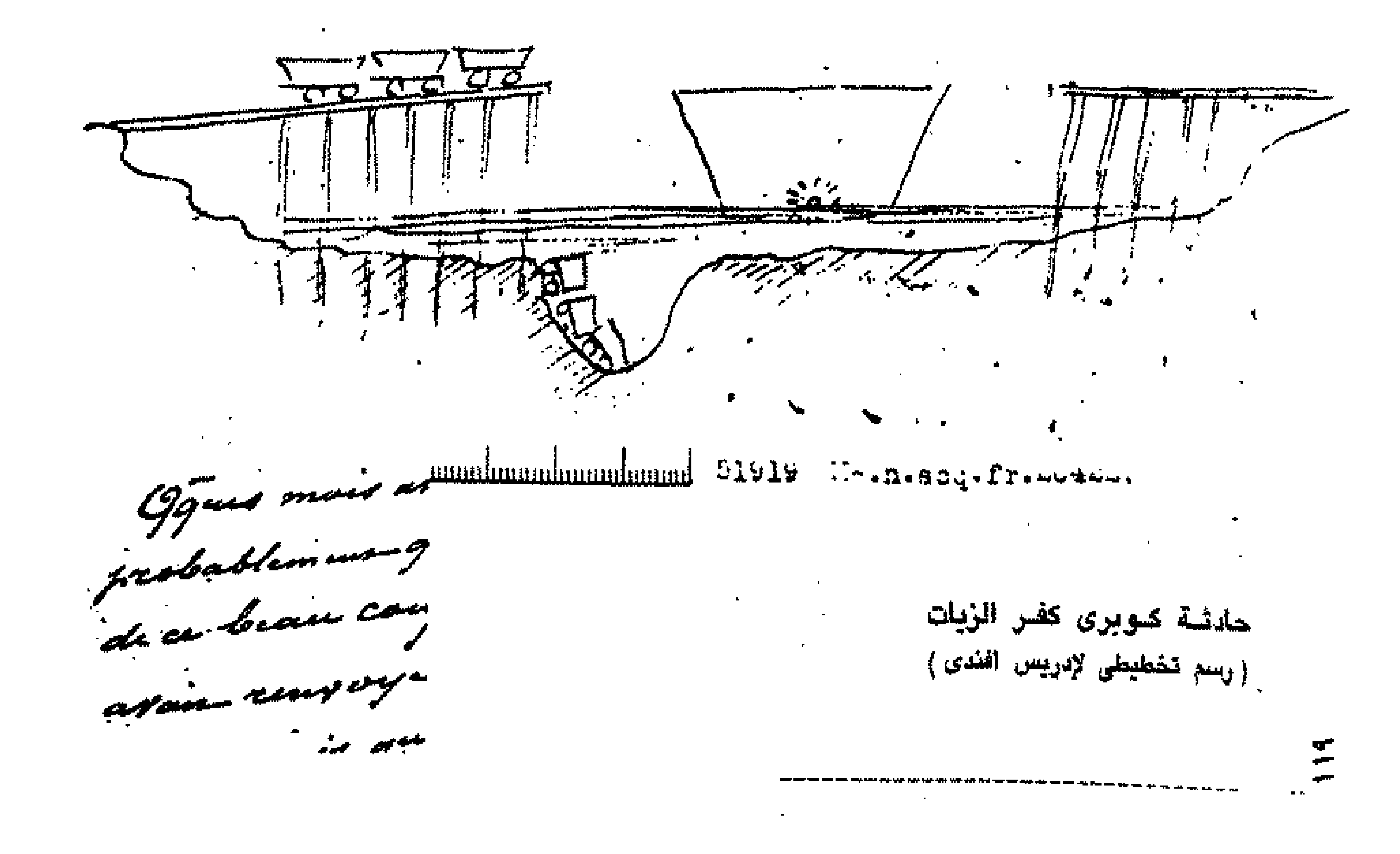
١٥ يولية ١٨٥٨

مر سعيد باشا امس فى « السكة الحديدية » دون ان يلتفت إليه اى عربى أدنى إلتفات ، فإلى ذلك الحد اصبح هذا الرجل محتقرا . ولم يحيه إلا بعض الاوربيين . وعندما وصل إلى القلعة ، قذف جمهور من العرب عرائض فى عربته ، فالقاها خارج العربة قائلا لهم انه لن يصرف لهم مرتبات قبل شهر « توت » .

واباح اخيرا أحد القناصل لنفسه ان يبدى بعض الملاحظات للباشا بشان مرتبات الموظفين المتاخرة ، فاجابه :

— انك تدهشنى . لقد دان أبى بمرتبات اربعين شهرا للمستخدمين دون أن يجرؤ احد على أن يبدى له ملاحظة . وانا ايضا ارى ان احكم كما يطيب لى .

■ ■ ■



حادثة كوبرى كفر الزيات
(رسم تخطيطى لإدريس افندى)

ولقد قدر مبلغ ما ينفقه سعيد في نزواته الجنونية المتنوعة فكان في اليوم الواحد اكثر من دخل مصر في اليوم الواحد .

كذب المنجمون ..

كتب المدعو « شيا افندى » الموظف بنظارة الحربية أنه قرأ طالع سعيد باشا فاظهر ان وفاته ستحين سنة ١٢٧٥ هجرية التى بدأت في ٩ اغسطس سنة ١٨٥٥ . وقد صودرت هذه الرسالة ، وصدر الأمر بنفى « شيا » إلى فازوغلى ، أى بإلقائه في النيل اثناء الرحلة . وفي الوقت نفسه صدر الأمر باعتقال جميع السحرة والمنجمين وضاربى الرمل . ومن ضمن هؤلاء التعساء الذين بلغ عددهم ثمانين شخصا ، كان الشيخ « على الليثى » وهو عالم كان يشتغل بعلم التنجيم كغيره من العلماء ، إلا انه كان خدين احمد باشا ، ومن المحتمل ان يغرقوه كما اغرقوا سيده .

موظف كبير !

ان الطريقة التى بها يجعلون موظفا يقفز من منصب إلى اخر جديرة بالملاحظة .

عابدين باشا موظف في سك النقود كان قد بلغ مرتبة البكباشى وهو فى السابعة عشرة من عمره . وأصبح سكرتيرا خاصا لعباس باشا ، ثم غضب عليه الوالى فنقل رئيسا لجوقة موسيقى « المفروزة » أى فرقة الحرس المنتخبين . ولما لم يكن يصلح قط لهذه الوظيفة فقد نقلوه مديرا لإقليم الجيزة ، وكثيرا ما رآه الناس يفر من مكتبه مصطحبا حجابه ، إلى حيث يلهو على شاطىء النهر .

تبذير .. وتقتير

اصطحب سعيد باشا في رحلته إلى « طيبة » للاحتفال بعيد ميلاده ٣٧ سفينة بخارية ، كانت آخرها تحمل مسرحا للتمثيل .

وتدر مصر حوالى ٢٥ مليون ريال (١٢٥ مليون فرنك) على الباشا الذى يحكمها ولا يفعل شيئا في سبيل خيرها في الحاضر ولا في المستقبل . ولا يسعى سعيد إلا لتكديس المال ثم تبذيره مع « برافى » و « باستريه » و « دى ليسبس » ويقال انه اودع اخيرا مائة الف جنيه فى اوربا (٢٥٠٠,٠٠٠ فرنك) .

وهو لا يتردد في استخدام اى وسيلة من شأنها ان تزيد ثروته . امر منذ عام ونصف العام تقريبا بإنشاء سجل جديد لمصر . فقد طلب أن يرى المقياس الزراعي المعروف « القصبة » . ونظر فيها فبدا له انها أطول مما ينبغي . وكسر من أحد طرفيها قطعة تبلغ نحو عشرة أصابع قائلا :

— منذ الآن ، يكون هذا طول القصبة .

وبهذه القصبة قيدت الأملاك في مصر . وقد زاد هذا المقياس الزائف دخله بنسبة العشر .

وأنا أقدر هذه النسبة على أساس من الواقعة التالية :

كان مسيو « دروفتي » (قنصل فرنسا) قد نال من محمد علي ابعدية مساحتها ٣٠٠ فدان في الفيوم . فلما جاء ابن القنصل سنة ١٨٥٨ يطالب بالامتياز الممنوح لوالده ، وجد ان الأرض التي كانت محددة المساحة فيما مضى تحوى ٢٣٠ فدانا حاليا .

جبـايـة ضـريبـة

أراد سعيد باشا في أول عهده أن يجبر بعض قبائل الصعيد على ان يدفعوا « الميرى » عن الأراضي التي يزرعونها ، وكان محمد علي قد أعفاهم من هذه الضريبة لقاء خدمات أدوها له أثناء حرب الشام . فلما رفضوا ، سير إليهم سعيد باشا فرقا من الجيش هزمتهم . فأذعن الشيوخ على شرط أن يؤمنهم على حياتهم ، غير أن سعيد لم يرغب في التصديق على هذا التعهد ، وأمر بإعدامهم . ورفض الباشا المكلف بقيادة تلك الحملة تنفيذ الأمر ، فعزله ، وأمر بربط عدد من رؤساء تلك القبائل إلى فوهات المدافع وإطلاقها ، ثم أرسل الآخرين إلى الأشغال الشاقة بالاسكندرية حيث عومل هؤلاء التعساء أقسى معاملة . وبعد انقضاء بضعة أشهر ، قال للباشا طبيبه « لاوتنير بك » ان أولئك المساكين قد أشرفوا على الهلاك ، فأجابه الباشا :

— وهل تظن انني احضرتهم إلى هنا للإبقاء على حياتهم ؟

وهذا العمل الذى افتتح به سعيد عهده قد بدد الآمال التي عقدها أصحاب النية الحسنة والقلوب الطيبة على أمير رباه الأوربيون . والآن لا يسبح إلا مسيو « دى ليسبس » وفرقته بحمد الباشا الذى يملأ بالمال خزائنهم .

× × ×

المجون الرسمي

لقد جرى سعيد على أن يستخدم أوسمته استخداما غريبا لا ينبغي أن نصمت عن إذاعته لكي يعتبر بذلك الملوك الأوربيون الذين يقذفون إلى درك العار بهذه الشارات المشرفة إذ هم يمنحونها لأمثال هؤلاء الداعرين . ففي ليالي المجون الكبرى يخلع ثيابه ويظل عاريا كجميع غلمانه . فيقلد أحدهم وشاح « جوقة الشرف » والآخر رباط سان موريس أو « سان لازار » أو شاح « البرج والسيف » البرتغالي ، ويلهو بأن ينتهك صاحب الجلالة الامبراطورية أو جلالة ملك هذا البلد أو ذاك . ولما كان يقوم طورا بالدور الإيجابي وطورا بالدور السلبي ، فليس يحق لأحد أن يستاء .

* * *

ولا يتخذ سعيد حرسه إلا من فتيان تتراوح أعمارهم ما بين ١٢ و ١٦ سنة . وفي الصباح ، يرى المرء نحو ستة من حرس الباشا خارجين من جناحه ، وقد أنهكتهم ليلة من المجون أكثر مما ينهكهم نهار من التدريب العسكري .

ويعطي سموه خواتم من الماس وساعات ذهبية لأولئك الذين يخضعون لنزواته . وذات يوم أراد أحد هؤلاء الجنود أن يبيع جوهرة فأدى ذلك إلى اعتقاله على اثر اشتباه الصائغ الأوربي فيه وظن أن الفتى قد سرقها . فصرح الجندي بأن الباشا هو الذي منحه ذلك الخاتم . ورفعوا الأمر إلى الباشا ، فقال :

— ألست حرا في أن أعطي الهبات لمن أشاء ؟

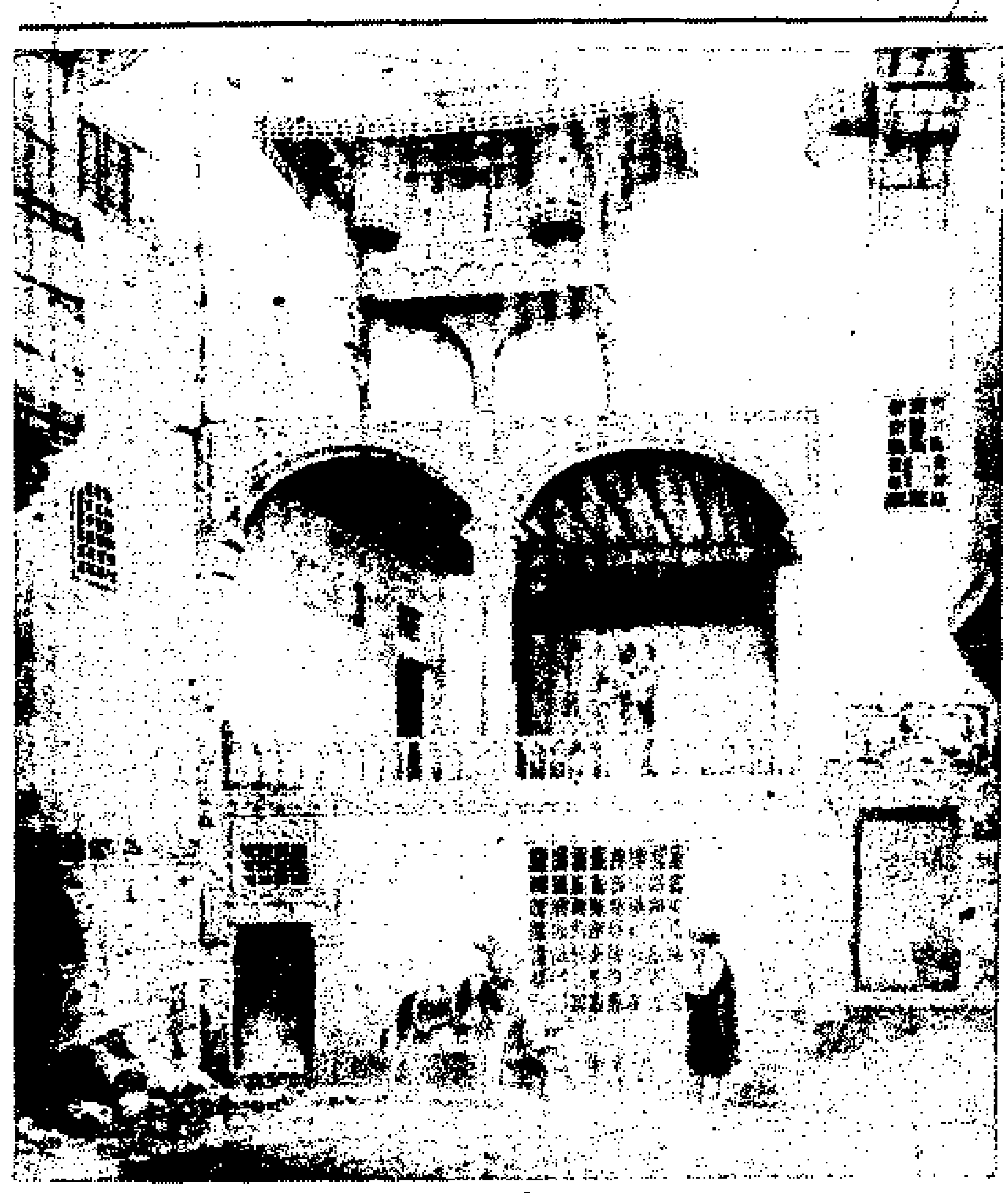
مبـــادىء الحـكم !

لقد أمر سموه أخيرا بدفع مرتب موظفيه عن ستة أشهر ، بينما هو مدين لهم بمرتباتهم عن اثنى عشر شهرا (١٠ ديسمبر ١٨٥٨) .

وهذا هو التعليل العجيب الذي ذكره سموه لواحد من الأوربيين كان يحدثه عن بؤس الموظفين :

— أن في الاستبداد ضمان القوانين وحياتها . فلو أنني كنت أدفع للجيش وللموظفين مرتباتهم بانتظام كما هو الحال لدى الافرنج إذن لطردوني من البلاد عندما تحين أول لحظة تضطرني فيها الظروف إلى تأجيل الدفع . فالأفضل هو التصرف كما نفعل . وهكذا لن يجرؤ موظف

على أن يترك مركزه ، ونحظى بالرضا الشعبي بعض الوقت كلما أمرنا بصرف المتأخر من مرتبات الموظفين على غير ما يتوقعون . أما إذا كانت هناك ميزانية فلن نستطيع ان نتصرف كما نشاء في المال العمومي ، ولا ان نظفر بخدمات الرجال الذين نحتاج إلى طاعتهم ولا يستحقون ان نخضعهم بالعنف .



منظر داخلى في بيت مصرى
خلال القرن التاسع عشر بريشة إدريس افندى

إسماعيل باشا

مما يجدر بالملاحظة انه من بين جميع ابناء الباشوات الذين تربوا فى اوربا لم تظفر مصر بمواطن واحد ممتاز . فلقد انهكوا أجسامهم جميعا فى المجون ، وأخذوا جميع عيوبنا دون ان يكتسبوا واحدة من صفاتنا أو فضائلنا .

لا يصلح ابناء شريف باشا إلا للتكبر عليك والجرى وراء البنات .

وقد أعطى إسماعيل باشا ابن إبراهيم للدكتور « بروجيير » كتاب « وصف مصر » قائلا له :

— أرحني من هذا الكلام الفارغ .

إسماعيل باشا محب للانتفاع إلى حد كبير . ان هباته الكريمة ناتجة عن غروره ، ولكنه لحز شحيح .. فهو يتذكر ادنى نفقاته . قال يوما :

— كلفنى غدائي مع نوبار في القهوة الانجليزية التى قصدناها متنكرين ١٣٧ فرنكا و ٥٠ سنتيما .

عندما سافر الوالى إلى فيشى فى اغسطس عام ١٨٦٧ ، جمحت الجياد التى كانت تجر مركبته فى بعض الطريق . وكان فى صحبته « نوبار » و « شارل ادمون » فرجياه الا يرتاع والا يخشى شيئا ، ولكن خوفه دفعه إلى أن يقذف نفسه خارج العربة فسقط في الوحل . وقبل ان ينزل نوبار ليعينه على النهوض قال لصاحبيه :

— ها هو ذا فى معدنه .

وعلى اثر عودة الباشا إلى مصر ، وقد صدمه أصحاب الأموال الذين حاول الاستدانه منهم ، خفض مرتبات موظفيه . وكان نوبار ضمن من شملهم هذا الإجراء ، فاستاء وعزم على ترك الخدمة . ولكنه مضى فاستشار إحدى قارئات الغيب فى اوراق اللعب ، وبناء على ارائها قرر البقاء .

■ ■ ■

الفهـــرس

الصفحة

الجـزء الأول

صور من المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧٧٦ / ١٩٩١

الترقيم الدولى ISBN — 977 — 08 — 0132 — 1

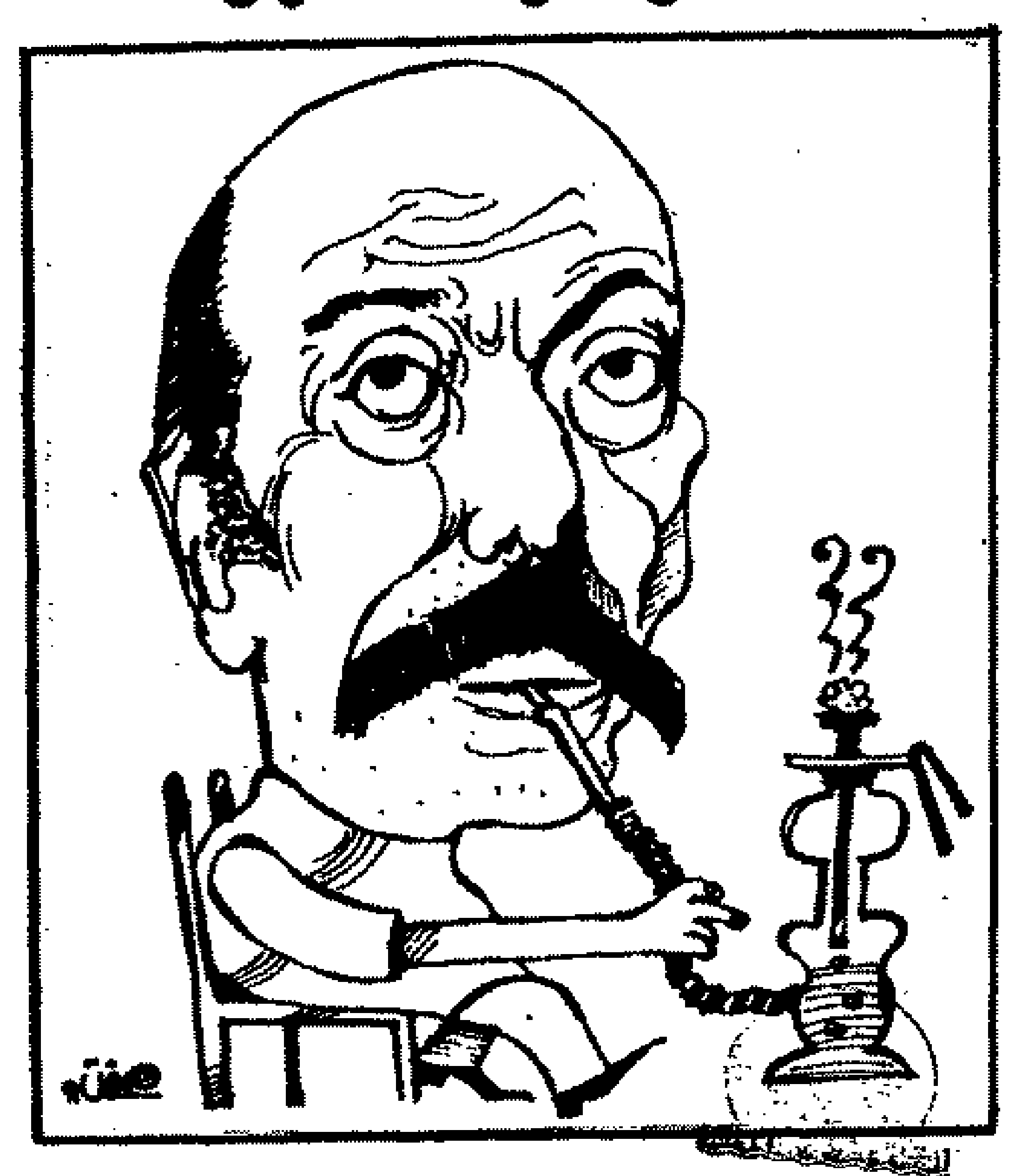
صفحة

الجـــزء الثـاني

من محمد على إلى إسماعيل

● كتاب اليوم ● عدد أغسطس

حمار من الشرق



للكاتب الساخر :

محمود السعدنى

● ترقب صدوره ●

إدريس أفنـدى
فى مصـر



منذ اكثر من ثلاثين عاما ، عثر الدكتور انور لوقا الأستاذ المصرى بالجامعات الفرنسية على مذكرات تاريخية هامة ضمن مؤلف ضخم بالفرنسية يتكون من اربعة عشر مجلدا عن مصر ، للمهندس والفنان والمستشرق الفرنسى بريس دافين الذى وفد على مصر فى اواخر عهد محمد على ، ومكث بها إلى اواخر عهد الخديو إسماعيل ، وخلال مقامه شهر إسلامه وسمى نفسه إدريس افندى ، وعايش الشعب المصرى ، ودرس التاريخ المصرى القديم ، واتقن الهيروغليفية ، غير أن عمله الخالد يتمثل فى لوحاته الرائعة للعمارة الاسلامية والفنون المختلفة ، والتى قدم فيها إلى العالم ما خفى من جماليات الفن الاسلامى العظيم ، فى مذكراته التى ترجمها الدكتور انور لوقا وتنشر لاول مرة .

يكتب إدريس افندى عن مصر بعين فنان ومحب ومتعاطف مع الناس ، يرسم صورة للحياة اليومية ، للمجتمع ، للتقاليد ، للعادات ، للأسواق ، إنها لوحة فريدة من اعظم ماكتب إدريس افندى (بريس دافين) بالكلمات .

■ جمـال الغيطـانى ■

طبعت بمطابع دار اخبار اليو